الحركة الوطنية الفاسطينية

١٩٤٨ – ١٩٧٠

الطبعة الاولى
كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٥

C.2
N6S2

عبد القادر ياسين
احمد صادق سعد

الحركة الوطنية الفلسطينية
١٩٤٨ ١٩٧٠

الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

حقوق الطبع محفوظة
للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

تقديم

تتمثل قيمة هذا الكتاب في انه يتصدى بالبحث والتحليل لفترة حية من تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية (١٩٤٨ـ١٩٧٠) وهي فترة ما زلنا نعيش تفاصيلها وآثارها ، ولا شك ان ما ينتظر من تطورات في المستقبل سيكون وثيق الصلة بمكونات هذه المرحلة وخصائصها · تفسره ويفسرها في آن ·

وبفضل المنهج المادي الجدلي الذي تبناه الباحثان احمد صادق سعد وعبد القادر ياسين ، نجحا في تناول احداث المرحلة موضوعيا ، رغم ان زمنا كافيا لم ينقضي ليوفر البعد اللازم للنظر بموضوعية لتفاصيل ما تزال حية في الاذهان · كما ساعد هذا المنهج على الربط بين التفاصيل ربطا يميزه الوعي الشديد بحقيقة القوى الفاعلة والمتصارعة في هذه الفترة · ومكوناتها ، اذ نلاحظ ان خيطا منهجيا واحدا يشد جزئيات الاحداث والوقائع التاريخية ، بحيث لا نراها متناثرة بشكل تتابعي معزول عن المسببات والنتائج ، وانما هي محتواه ضمن تلك النظرة المنهجية الواعية · وقد ساعد هذا كثيرا في توضيح ما يمكن وراء وقائع الفترة وتقلباتها ·

ومن هنا ، فان هذا الكتاب ، باعتماده المنهج المادي الجدلي يساهم مساهمة فعالة في رؤية المقاومة الفلسطينية في سياقها التاريخي كحلقة في سلسلة النضال الفلسطيني التي لم تنقطع

يوما من الايام · فانطلاقة المقاومة عام ١٩٦٥ لم تكن الا تتويجا لتلك الحركة الوطنية الدائبة والمستمرة في التصدي للاحتلال ولقوة الامبريالية والرجعية التي تقف وراءه · ولا يفقد الباحثان أبدا الرؤية التاريخية للمقاومة كحركة متصلة وديناميكية · ومن ثم يدحضان « المناج الخاطىء » الذي يتعامل مع المقاومة الفلسطينية « وكأنها نبت شيطاني منبتة الصلة بما سبقها من كفاح وتضحيات » · فالمقاومة الفلسطينية سلسلة من الحلقات المتصلة قد تضعف أحيانا نتيجة لعديد من العوامل الموضوعية غير أنها لم تنفرط أبدا ·

ويعتبر هذا الكتاب مسحا أوليا ، موضوعيا وممتازا ، لخريطة الاحداث والقوى الفاعلة في هذه المرحلة ، موضوع البحث ، ومدخلا لا بد منه يفتح السبيل بعد ذلك للدراسات التفصيلية والاكاديمية التي تنتظرها المكتبة الفلسطينية · ونرجو أن يتمكن الباحثان ، بما يتميزان به من قدرة وتمكن ، من امداد المكتبة الفلسطينية بعدد من الدراسات المستقلة الوافية التي تحيط احاطة دقيقة بتفاصيل هذه المرحلة التي اقتضت شمولية البحث عدم التوقف عندها بالقدر الكافي ·

القاهرة

مريد البرغوثي

المقدمة

حتى تتسم خطى كفاحنا باليقين ، لا بد من ان نلـــوذ بحصن تاريخنا الوطني ، يقينا من رياح الانحراف ، ويدفـــــع عنا كواسر المساومين والمزايدين والجهلة ·

قبل أن تضل اقدامنا ، علينا الالتفات الى الماضي ، نستكشف ما حولنا وأمامنا ·

ولعل مما يحز في النفس ، ان تاريخنا الوطني حتـــى نكبة ١٩٤٨ ، لم يكتب بعد كما يجب ، في حين ظل بعـــد النكبة خارج نطاق محاولات الباحثين والكتاب ·

وهذا الكتاب يغطي الفترة الواقعة ما بين النكبة ومذبحـــة أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ ، التي نفذتها السلطة الاردنية ضـد جماهير شعبنا الفلسطيني في شرقي الاردن ·

في تلك الفترة مر كفاحنا الوطني بمراحل ثلاث :

١ ـ **مرحلة التغييب :** وفيها بذلت الانظمة العربية قصـارى جهدها لتغييب الشعب العربي الفلسطيني عـــن ميدان الكفاح ، مستهدفة طي القضية الفلسطينية والمساومة عليها مـع الاستعمار والصهيونية · واذا كانت جذور هذا «التغييب» تمتد الى عام ١٩٣٦ ، حين تدخل بعض الملوك والامراء العرب (عبدالله ، عبد العزيز بن

سعود ، الامام يحيى ، غازي ،) لتصفية الثورة الفلسطينية لحساب الاستعمار البريطاني ، واذا كان هذا الدور قد تكرس على أيدي الجامعة العربية ، التي دأبت – منذ تأسيسها عام ١٩٤٥ – على مصادرة حق الشعب الفلسطيني في التعبير عن نفسه ، وانتزعت الجامعة هذا الحق لنفسها ، الا ان مرحلة التغييب الفعلي بدأت من عام النكبة ، ١٩٤٨ ، وانتهت بعد ان وضعت الرصاصة الاولى للثورة الفلسطينية ، في مطلع ١٩٦٥ ، حدا لها ٠

ومن الاهمية بمكان ، الاشارة هنا الى منهاج خاطىء ، يتعامل مع المقاومة الفلسطينية وكأنها نبت شيطاني ، منبته الصلة بما سبقها من كفاح وتضحيات، مما يظهر الكفاح الوطني الفلسطيني وكأن بدايته جاءت في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥ ٠ وفي هذا ظلم كبير للشعب الفلسطيني ولحركته الوطنية ٠

ومعروف ان مقاومة الشعب الفلسطيني لم تنقطع ، حتى بعد وقوع النكبة ٠ وان ظلت مبعثرة ينقصها الاستمرار والكثير من أسباب الانتصار ، كالتنظيم والتخطيط ٠ على أن قيام منظمات المقاومة وضع حدا لهذا التبعثر ، وابتدأت مرحلة جديدة من كفاح الشعب الفلسطيني ، تميزت بالتأطير ، ووضعت حدا للعفوية والتشرذم ٠

٢ – **مرحلة الكفاح على جبهتين** : وهي المرحلة التي امتدت من انطلاقة «فتح» في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥ ، وانتهت بحرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ٠ وتميزت بحرب ضروس خاضتها الحلقة الضيقة من الفدائيين الفلسطينيين ضد الكيان الصهيوني من جهة ، وضد معظم الانظمة العربية من جهة اخرى ٠ فمعظم الانظمة العربية لم تسلم بحق هؤلاء الفدائيين في الكفاح والاستشهاد من أجل وطنهم المغتصب ، وشنت ضدهم حربا نفسية شرسة ، بداية بالتشويه والافتراء ، وانتهاء بحملات الاعتقال والتقتيل !

٣ ـ **مرحلة ضرب الجذور :** أدت حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ الى افلات الشعب الفلسطيني من قبضة الانظمة العربية التي تراخت بفعل الهزيمة · وكشفت تلك الحرب ـ من ضمن ما كشفت ـ عن أن تلك الانظمة لم تكن تجيد الا قهر الشعب واذلاله ، شعبها ومن لاذ ببلادها من الفلسطينيين ، وهدفت هذه الانظمة بممارسة القهر ، الحفاظ على مكاسبها وأطماعها الخاصة الضيقة · ومن الناحية السياسية ، زادت قناعة قطاعات عريضة من الشعب الفلسطيني بجدوى العمل الفدائي ، بعد خيبة أمل هذه القطاعات في الجيوش العربية النظامية اثر الهزيمة ، لذا تدفقت جماهير الشعب الفلسطيني الى العمل الفدائي تغذيه وتعززه · وضربت الحركة الفدائية بجذورها في أوساط الشعب الفلسطيني ، الا أن تضافر الاستعمار والصهيونية والرجعية العربية ، و «تطنيش » اللارجعيين من الحكام العرب ، ادى الى نجاح النظام الاردني في توجيه ضربة قاسية الى العمل الفدائي الفلسطيني ، في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ وتموز (يوليو) ١٩٧١ ·

على أن العمل الفدائي نفسه لم يكن منزها عن الخطأ · بل سقط في بعض الاخطاء ، وتمكنت منه سلبيات عجز عن التخلص منها ، سهلت للرجعية مهمتها الاجرامية · وكان يمكن تجنب معظم هذه الاخطاء والسلبيات ، اذ ان الحركة الوطنية الفلسطينية سبق وان انزلقت اثناء الاحتلال البريطاني لفلسطين (١٩١٨ ـ ١٩٤٨)· ولو أن الحركة الفدائية وعت واستوعبت خبرات وتجارب الكفاح الوطني الفلسطيني ، لما تكررت المأساة بكل هذا الدم والدمار ·

ولا تتسع مثل هذه المقدمة للحديث عن سلبيات واخطاء حركة المقاومة حتى مذبحة ايلول (سبتمبر) · ويكفي الاشارة الى سبل العلاج ، في خطوط عريضة ، بعيدا عن الاسهاب والتفاصيل ·

ان **ارتكاز كفاحنا الوطني على الحق** أمر يعزز هذا الكفاح ، لكنه لا يضمن ـ وحده ـ الانتصار ، ولا يكفي لانجاز مهام في مثل

صعوبة وتعقيد مهامنا الكفاحية . فكفاحنا يتطلب الاسترشاد بنظرية **ثورية** ، **والتفهم العميق للواقع** المحلي والعربي والعالمي ، وصولا الى **استراتيجية** توفر لنا **الوضوح الفكري** ، وتعيننا على اتباع **تكتيكات صائبة** ، مستندين الى **وحدة وطنية راسخة** بين كافة فصائلنا الثورية مرتبطين بجماهيرنا الفلسطينية ، معززين بفصائل الثورة العربية وجماهيرها العريضة ، واضعين - قبل كل هذا - واجب بناء **تنظيم ثوري** على رأس جدول اعمال الثورة .

وبعد ،

نحن لا نزعم الكمال في هذا العمل ، الذي لا يعدو ان يكون اساسا لدراسة اكاديمية موسعة لتاريخنا الوطني ، فيما بين النكبة والمذبحة .

القاهرة ١-١-١٩٧٥

عبد القادر ياسين

الفصل الأول

تكوينات ما بعد النكبة

التقسيم

في الثامن عشر من شباط (فبراير) ١٩٤٧ ، أعلن ارنست بيفن ، وزير الخارجية البريطاني ، احالة قضية فلسطين الى الامم المتحدة · وقد تمت الاحالة فعلاً في الثاني من نيسان (ابريل) من السنة ذاتها ·

وبعد مناقشة قصيرة اجرتها الجمعية العمومية للامم المتحدة ، تقرر ارسال لجنة من الامم المتحدة الى فلسطين والبلاد العربية ومعسكرات المهاجرين اليهود ، لجمع المزيد من حقائق الموقف · وبدأت اللجنة المذكورة ممارسة مهامها في حزيران (يونيو) ، وعادت لتقدم تقريرها الى الجمعية العمومية في تشرين الاول (اكتوبر) من السنة نفسها · وجاء في توصيات اللجنة : ضرورة خروج الانجليز من فلسطين ، ورأت اغلبية اللجنة ضرورة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود · في حين رأت الاقلية قيام دولة ديمقراطية ثنائية القومية في فلسطين ·

وفي التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ ،

أقرت الجمعية العمومية تقسيم فلسطين ، بأغلبية ٣٣ صوتا ضد ١٣ وامتناع عشرة أصوات عن التصويت (١) ٠

وقد تحكم قرار الاتحاد السوفياتي بالموافقة على التقسيم عوامل متباينة ٠ فمن ناحية كان الاتحاد السوفياتي لا يتعامل مع اليهود باعتبارهم أمة بل كطائفة دينية ، كما كان يدين الصهيونية باعتبارها حركة رجعية وعميلة للامبريالية ٠ ومن ناحية أخرى كان للمذابح التي نظمها العهد النازي لليهود أبان الحرب العالمية الثانية وبدء المنظمات الصهيونية بعمليات عسكرية ضد المحتلين الانجليز في فلسطين ، ووقوع البلاد العربية – في معظمها – تحت حكم رجعي عميل للاستعمار – كان لهذه العوامل الثلاثة أثرها المعاكس للعاملين الاولين ٠ وازاء كل هذه العوامل المتناقضة ، وازاء تمسك السوفيات بضرورة خروج الانجليز واستقلال فلسطين ، فقد وافق الاتحاد السوفياتي على تقسيم فلسطين « كأساس لاستقلال فلسطين» ولعدم امكانية تعايش العرب واليهود في دولة واحدة آنذاك ٠ وقد بين المندوب السوفياتي في الامم المتحدة انه يتطلع الى أن الوحدة الاقتصادية بين الدولتين ، العربية واليهودية في فلسطين ، ستعيد للبلاد وحدتها ، وستقوم في فلسطين – بالتالي – دولة ديمقراطية موحدة (٢) ٠

هذا في حين كانت الامبريالية الاميركية تطمع – من وراء تأييدها للتقسيم – في وراثة مركز الامبريالية الانجليزية في الشرق ٠ مما دفع بالامبريالية الامريكية – بالاشتراك مع الحركة الصهيونية – الى استخدام سلاح الرشاوى وشتى انواع الضغوط واغراءات مع وفود وحكومات الدول المختلفة ٠ حتى وصل الامر الى حد توزيع معاطف الفراء الثمينة على زوجات مندوبي أمريكا اللاتينية في الامم المتحدة ثمنا لاصوات أزواجهن (٣) ٠

الاحتكام للسلاح

فجر الثلاثين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ ، انطلقت

الرصاصات الاولى للصدام المسلح من مدينة القدس، ومنها انتقلت الشرارة الى بقية المدن والقرى والمستوطنات وطرق المواصلات ٠ واشتعلت البلاد من أقصاها الى اقصاها وجرت صدامات دامية بين العرب الفلسطينيين وبين المستوطنين اليهود ٠وتدفقت الجماهير العربية الفلسطينية الى ميدان الكفاح للحفاظ علىترابها ، وان كان ينقصها الكثير من السلاح والعتاد ، مقابل تمتع رجال العصابات الصهيونية (الهاجاناه ، الارغون ، شترين) بالوفير من الاسلحة والذخائر ٠

وشكلت الهيئة العربية العليا « الجهاد المقدس » وعينت له القيادات في محاولة منها لتنظيم الكفاح الوطني وتأطيره ٠ كما تشكلت في المدن والقرى العربية الفلسطينية « اللجان القومية » ،على غرار لجان ثورة ١٩٣٦ القومية ، لتنظيم الكفاح وترتيب أمور المدنيين ٠

وفي أواخر كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨ ، نشرت صحيفة «البوست» الفلسطينية احصاء للخسائر في الارواح ، منذ بدء الصدام وحتى تاريخ نشر الاحصاء ٠ فقالت أنها بلغت ٣٢٠٠ اصابة بينها ١٢٠٠ اصابة قاتلة ٠ منهم ٧٢١ قتيل عربي و ٤٠٨ قتيل يهودي و ١٢ شرطي بريطاني و ١٩ بريطاني آخر ٠ في حين أصيب بجراح ١١٧١ عربيا و ٧٤٩ يهوديا و ٣٧ شرطيا بريطانيا و ٧٦ جنديا بريطانيا و ١٣ آخرين (٤) ٠

وفي الثامن من آذار (مارس) ١٩٤٨ ، أصدر المكتب العربي بالقدس بيانا بالخسائر خلال معارك المائة يوم السابقة على صدور البيان ٠ فكانت على الوجه التالي : ٧١٣ قتيل عربي و ٨٦٣ قتيل يهودي و ٩٥ قتيل بريطاني (٥) ٠

وحتى أول نيسان (ابريل) ١٩٤٨ بلغت الخسائر ـ حسب بيان آخر للمكتب العربي ـ كما يلي : ٩٦٣ قتيل عربي منهم ٢٤٩ مناضل و ٧١٤ مدني ٠ في حين قتل ١١٦٩ يهوديا منهم ٦٢٥ من رجال

العصابات المسلحة و ٥٤٤ مدنيا ، وفي الفترة نفسها قتل ١١٠ بريطاني · (٦)

وفي التاسع من نيسان (ابريل) ١٩٤٨ استشهد عبد القادر الحسيني ، أبرز قادة «الجهاد المقدس» ، وكان قد دخل معركة القسطل فيما يشبه الانتحار ، بعد أن عزت الاسلحة والذخائر ، التي تلكأت الدول العربية في ايصالها الى فلسطين ، متذرعة بشتى الاعذار · ويعتبر هذا التاريخ بداية حالة الهبوط التي اصابت حركة الكفاح المسلح الفلسطيني ، والتي وصلت ذروتها بدخول الجيوش العربية فلسطين ، في الخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨ · حيث انقضت قيادات تلك الجيوش – وبالذات المصرية والاردنية – على المناضلين العرب الفلسطينيين تنتزع منهم أسلحتهم ، وتحول بينهم وبين القتال · حتى لا يعرقلوا خطط الملك عبدالله الذي كان يطمع في ضم الجزء العربي المتبقي من فلسطين الى مملكته ، وحتى لا يقفوا في وجه القوات المصرية ، التي أنفذها الملك فاروق في نطاق منافسة الملك عبدالله · وان كان هذا لم يمنع المقاتلين الفلسطينيين في المناطق الشمالية من فلسطين من التعاون مع الجيشين السوري واللبناني ، اللذين لم يكن لهما موقف قيادتي الجيشين المصري والاردني ·

وبعد أقل من شهر واحد ، وفي ١١ – ٦ – ١٩٤٨ ، قبلت الدول العربية عقد هدنة عسكرية من الجانب الاسرائيلي ، تمتد لاربعة أسابيع ·

وفي هذه الاثناء قام الوسيط الدولي ، الكونت فولك برنادوت ، بتقديم مشروعه القاضي بتوحيد الجزء العربي من فلسطين مع شرقي الاردن ، على ان تقوم في الجزء الباقي من فلسطين دولة يهودية يربطها بالدولة العربية اتحاد فيدرالي · وأقر مجلس الامن مشروع برنادوت هذا ، في الرابع من تموز (يوليو) ١٩٤٨ ·

وبعد اربعة أسابيع تجدد القتال · الا ان ميزانه كان قد انقلب لصلحة القوات الاسرائيلية ، التي استغلت الاسابيع الاربعة للهدنة في التزود بالمزيد من الاسلحة والذخائر ، وتعزيز قواتها بالمئات من المقاتلين الجدد · وعليه أخذت القوات العربية تتراجع وتخلي العديد من المدن والقرى ، وقبلت البلاد العربية بالهدنة الثانية في الثامن عشر من تموز (يوليو) · الا ان الجيش الاسرائيلي اندفع مخترقا جبهة الجيش المصري ، بعد أن صمتت جبهات الجيوش العربية الاخرى ، ولم يوقف الجيش الاسرائيلي تقدمه الا يوم الثامن من كانون الثاني (يناير) ١٩٤٩ ·

وقامت الدول العربية بتوقيع اتفاقيات هدنة مع اسرائيل – فيما بين شباط (فبراير) وتموز (يوليو) ١٩٤٩ · بعد أن سلمت أكثر من ثلاثة ارباع فلسطين لقمة سائغة للاسرائيليين · اي ان الاسرائيليين اضافوا ٦٧٠٠ كم٢ الى الاراضي التي كانت مخصصة للدولة اليهودية حسب قرار التقسيم (٧) ·

وضم النظام الاردني ٥٠٠ر٥ كم٢ من فلسطين اليه ، وهو الذي عرف فيما بعد باسم «الضفة الغربية » · في حين أقامت مصر في قطاع غزة (٢٥٨ كم٢) ادارة مصرية عسكرية · وبذا تبخرت الدولة العربية الفلسطينية المقترحة وتقطعت أوصالها ·

لقد كان بين الدول العربية واسرائيل فرق شاسع في القدرات العسكرية · وكان من الممكن تغطية هذا الفرق بسياسة تحررية تقدمية ، توحد صفوف الجماهير العربية والفلسطينية وتعبئها ، سياسة تعزل يهود فلسطين عن القيادة الصهيونية المتحالفة مع الامبريالية الاميركية · غير أن الدول العربية اتبعت السياسة المعاكسة تماما ، فكانت هزيمتها السياسية والعسكرية في آن واحد·

فالحركة الوطنية الفلسطينية كانت قد فقدت أحسن عناصرها خلال ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ التي خرجت منها منهوكة القوى ومفتتة . ودخلت الدول العربية الحرب ، تحت ضغط الجماهير العربية ، ولكنها لم تنسق جهودها ، وكانت سياستها خاضعة للاستعمار البريطاني ، وتتحكم بها مطامع شخصية كمطامع الملك عبدالله في ان يكون له جزء من فلسطين . ولقد تصورت الحكومة المصرية ان «حملة فلسطين» ليست الا نزهة تستخدم فيها الاسلحة الانجليزية المتوفرة في قاعدة قناة السويس . ولم تستطع قيادة الحركة الوطنية في تلك الظروف توحيد جهود الجماهير التي كانت مستعدة ومتحمسة .

ويكمن السبب الاساسي لهزيمة الحركة الوطنية العربية في فلسطين في طبيعة قيادتها شبه الاقطاعية في ذلك الوقت ، تلك الطبيعة التي جعلتها تزرع في الشعب الفلسطيني الثقة في امكانيات الدول العربية لا في امكانيات الشعب الفلسطيني . واذا بالحوادث المتتالية تكشف عن الاهداف الرجعية التي ترمي اليها الحكومات العربية القائمة في ذلك الوقت ، وان سترتها بالثوب العربي وبعض الشعارات الملتهبة بالوطنية .

فمنذ العاشر من أيار (مايو) ١٩٤٨ زارت بعثة الفيلق العربي الاردني ـ وعلى رأسها الجنرال جون باجوت جلوب ـ الزعماء الفلسطينيين الموالين للملك عبدالله ، وخاصة الشيخ محمد علي الجعبري ، رئيس بلدية الخليل ، ورشدي الشوا ، رئيس بلدية غزة . وفي الخامس عشر من الشهر نفسه احتل الفيلق العربي أريحا ، واحكم قبضته على القسم الشرقي من فلسطين ، قبل ان يبدأ عملياته العسكرية .

وكانت تقديرات الجنرال جلوب لتوازن القوى العسكرية ، في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨ ، كما يلي (٨) :

مصر	١٠ر٠٠٠ جندي
الفيلق العربي	٤ر٥٠٠ »
سوريا	٣ر٠٠٠ »
لبنان	١ر٠٠٠ »
العراق	٣ر٠٠٠ »
المجموع	٢١ر٥٠٠ جندي

وفي مواجهتهم كان حجم القوات الاسرائيلية يصل الى ٦٥ر٠٠٠ جندي · وكانت الدلائل كلها تشير الى أن القيادات العسكرية تبحث بالحاح عن طريق الهزيمة ··· فقد أرسلت السعودية ٥٠٠ بندقية غير صالحة للاستعمال ، واكتشفت ٣٠٠ بندقية أخرى مع القوات المصرية في حالة فاسدة ، بالاضافة الى عدد ضخم من المسدسات والعيارات النارية ·

أما جيش الانقاذ ، فقد خاض القليل من المعارك ، فبعد القتال حول صفد (١٠ أيار) هاجم الجيش المذكور المنارة في تشرين الاول (أكتوبر) الا انه مني بهزيمة أفقدته قوته الاساسية ·

أما الجيش المصري ، فقد بذل مقاتلوه ما استطاعوا ، الا ان تعفن النظام الملكي تغلب على البطولات الفردية وأبطل مفعولها · وفي بدء العمليات أغار الطيران المصري على تل أبيب وريشون ليزيون ، ودخلت القوات المصرية غزة وبئر السبع ، قبل ان تتراجع الى قطاع غزة ·

ووقع الشيء نفسه للفيلق العربي ، الذي استولى في البداية على القدس ، ثم فوجيء بالامدادات والخدمات البريطانية تسحب

منه ، بدعوى تنفيذ قرار مجلس الامن في التاسع والعشرين من أيار (مايو) القاضي بوقف القتال . مما يسر للاسرائيليين أمر الاستيلاء على مدن الناصرة واللد والرملة .

وفي منتصف تموز (يوليو) استولى الاسرائيليون على بئر السبع ، ودارت في تشرين الاول (اكتوبر) معركة الفالوجة بين المصريين والاسرائيليين ، انتهت بانسحاب المصريين ، وتلا ذلك انسحاب الجيش المصري من المجدل وأسدود ، والتمركز في قطاع غزة .

تشتت جغرافي وانهيار التكوين الطبقي

انتهت الحرب بتشتيت معظم الشعب العربي الفلسطيني وتمزيق أوصال الدولة العربية المقترحة وتحطيم التكوين الطبقي القائم ، ليتحول الشعب بعدها الى لاجئين لا يكادون يجدون ما يقتاتون به .

ويتضح من بيانات وكالة غوث اللاجئين وتشغيلهم ،أن ٣٨ر٦٪ من مجموع اللاجئين المسجلين ، في حزيران (يونيو) ١٩٥٧ كانوا يقيمون في معسكرات تحت اشرافها (٩) :

الدولة	عدد المعسكرات	عدد اللاجئين في المعسكرات	النسبة المئوية من اللاجئين الذين في المدن
المملكة الاردنية	٢٥	١٧١ر٥٧٩	٣٣ر٢٪
قطاع غزة	٨	١٢٣ر٧٧٠	٥٦٪
لبنان	١٦	٤٥ر١٤٣	٤٤٪
سوريا	١٠	٢٠ر١٠٦	٢١ر٧٪
المجموع	٥٩	٣٦٠ر٥٩٨	

وفي عام ١٩٦٨ كان الفلسطينيون موزعين على الاقطار المختلفة طبقا للجدول التالي (١٠) :

القطر	لاجئون مسجلون لدى وكالة الغوث	فلسطينيون غير مسجلين كلاجئين	العدد الاجمالي
اسرائيل		٣١٣ر٠٠٠	٣١٣ر٠٠٠
قطاع غزة	٣١٦ر٧٧٦	٨٨ر٢٢٤	٤٠٥ر٠٠٠
الاردن	٧٢٢ر٦٨٧	٤٩٠ر٣١٣	١ر٢١٢ر٠٠٠
سوريا	١٤٤ر٣٩٠	٥ر٦١٠	١٥٠ر٠٠٠
لبنان	١٦٠ر٧٢٣	٧ر٢٧٧	١٦٨ر٠٠٠
السعودية		٥٠ر٠٠٠	٥٠ر٠٠٠
الكويت		٩٥ر٠٠٠	٩٥ر٠٠٠
امارات الخنيج		١٠ر٠٠٠	١٠ر٠٠٠
بلاد عربية اخرى		٤٠ر٠٠٠	٤٠ر٠٠٠
المهجر		١٠ر٠٠٠	١٠ر٠٠٠
المجموع	١ر٣٤٤ر٥٧٦	١ر١٠٩ر٤٢٤	٢ر٤٥٣ر٠٠٠

وهناك بعض المعلومات (١١) تحدد عدد الفلسطينيين في اسرائيل وقطاع غزة والضفة الغربية بما يلي : ١٠٠ر٢٤٨ و ٠٠٠ر٣٧٢ و ٠٠٠ر٦١٠ على التوالي أي ما مجموعه ٠٠٠ر٤٦٣ر١ ، وهو ما يساوي نحو ٥٩ ٪ من المجموع الكلي للفلسطينيين ٠ وهذا يعني ان اغلبية عرب فلسطين مركزة الان في ظل الحكم الاسرائيلي ، في حين تشتت الباقي في مختلف ارجاء الوطن العربي ٠

ويلاحظ ان نسبة اللاجئين المسجلين لدى وكالة الغوث كانت تبلغ ٥٤ ٪ تقريبا من مجموع الفلسطينيين عام ١٩٦٨ ، وأنها كانت مرتفعة بشكل خاص في سوريا (٩٦٪) ولبنان (٩٥٪) ثم قطاع

غزة (٧٥٪) فالاردن (٦٠٪) · ولقد كان عدد اللاجئين عام ١٩٤٩ يبلغ نحو ٢٫٢٧٦٫٠٠٠ ، منهم ٦٥٢٫٠٠٠ محتاجا ، وارتفع حجم المحتاجين الى ضعفين · ولهذه النسبة الكبيرة مـــن اللاجئين المحتاجين (اكثر من النصف على العموم) تأثير ضخم على الحركة الوطنية الفلسطينية ، وذلك لانهم يجمعون بين الفقر المدقع والهبوط الى ادنى درجات السلم الاجتماعي من جهة ، وبين ضعف الارتباط بالانتاج من جهة اخرى ·

وقد رحل الى الاردن والقسم الشرقي من فلسطين عام١٩٤٨ ما يقرب من ٦٠٠٫٠٠٠ عربي فلسطيني · وفي عام ١٩٦١ كـــان ٤٧٠٫٠٠٠ منهم يعيشون في ستة معسكرات كبيرة هي (١٢) :

الزرقاء وبهـــا	١٢٠٫٠٠٠ نسمة
عمـــان «	١١٠٫٠٠٠ «
اربـــد «	٣٠٫٠٠٠ «
القدس «	٥٠٫٠٠٠ «
الخليل «	٧٠٫٠٠٠ «
أريحـــا «	٩٠٫٠٠٠ «

وهذه التركزات السكانية هي أقرب الى المـــدن منها الى المعسكرات او القرى ، وان ظلت تفتقر الى الحيـــاة الحضارية الاقتصادية والطبيعية للمدينة ·

وفي ١٩٦٧ ـ قبيل العدوان ـ كان ٥٠٪ من اللاجئين مـــن الفتيان والفتيات ، تقل اعمارهم عن ١٧ سنة ، أي انهم لم يولدوا على أرض آبائهم · وكان نحو ٧٠٪ من اللاجئين ينحـــدرون من أصول فلاحية ، وما يقرب من ٩٣ ٪ منهم مـــن المسلمين (١٣) · ولسيادة الطابع الفلاحي هذا أهمية كبرى ، سنعود اليها فيما بعد· كما يلعب الدين الاسلامي دورا كبيـــرا ، باعتباره التراث الاساسي

لعرب فلسطين ، بما يتضمنه من الحث على الجهاد ، والمحافظة على الشرف ، وضرورة استعادة الكرامة ، وتمجيد الاستشهاد ٠ ومن جهة اخرى ، فمما لا شك فيه ان الرجعية العربية نجحت ، في احيان كثيرة ، في ستر حقيقة بعض مشاريعها المشبوهة برداء الدين ٠

أن ما يقرب من نصف مليون من اللاجئين قد وصلوا ، اذن ، الى سن الرشد في المخيمات والمعسكرات ، حيث لم تتوفر لهم فرصة اكتساب أي حرفة ، لانهم يعيشون بجانب اباء بلا عمل على الاغلب ٠ فلم يتعلم هذا الشباب ، الا النزر اليسير ، من انضباط العمل المثمر ، واصبح بالتالي ليس عاطلا فحسب بل غير قادرا على العمل الى حد كبير ، وان كان قد اقبل على التعليم في مدارس وكالة الغوث بنهم شديد ٠

وظلت تتكرر في تقارير وكالة الغوث الى الامم المتحدة الفقرة التالية : « نعود فنؤكد ان رغبة اللاجئين في العودة الى وطنهم لا زالت قوية ٠٠٠ (١٤) ٠

وفي عام ١٩٥٨ تم استيعاب حوالي ٢٥٫٠٠٠ لاجيء في أعمال دائمة في الدول التي يقيمون فيها، منهم ما يقرب من ٧٫٠٠٠ لاجيء حسنوا أحوالهم المعيشية بمعونة وكالة الغوث، وتم استيعاب حوالي ٦٫٠٠٠ في اعمال التدرب والتعليم ، وحوالي ٥٫٠٠٠ انتظمت حياتهم بالتأهيل المهني ، وتم استيعاب حوالي ٢٫٥٠٠ لاجيء في الزراعة ٠ والحق نحو ١٠٫٠٠٠ بأعمال مؤقتة : منهم حوالي ٤٧٫٠٠٠ في التأهيل المهني وحوالي ٢١٫٠٠٠ في التربية والتعليم ، وحوالي ١٨٫٠٠٠ في الزراعة٠ وعدد مماثل في التجارة والصناعة ، وحوالي ١٧٫٠٠٠ في أعمال البحث وعمليات التجارب وحوالي ١٤٫٠٠٠ هاجروا لدول أخرى او عادوا لاسرائيل ، وحوالي ٣٫٥٠٠ حاولوا تحسين احوالهم بمعونة وكالة الغوث (بناء على تقدير الدوائر الرسمية الاسرائيلية تم في الواقع استيعاب

اكثر من ٢٠٠ر٠٠٠ لاجيء في الدول العربية ، حوالي نصفهم في الاردن ، ونحو ٥٠ر٠٠٠ في سوريا ، ومثلهم في لبنان ، وعـــدد يتراوح بين ٢٠ر٠٠٠ و ٣٠ر٠٠٠ في السعودية والعراق وامـارات الخليج وما وراء البحار) (١٥) ٠

والاغنياء بين اللاجئين نسبتهم ضئيلة جدا ٠ وهـم يملكون أموالا في البلاد الاجنبية ، ومعظم هؤلاء يتركزون في لبنان ، لكونه مركزا للتجارة والتحويل ، حيث يلعب هؤلاء الفلسطينيون الاغنياء دورا اقتصاديا وسياسيا هاما في أوساط الفلسطينيين ٠ كمـا أن هناك عددا ـ يقرب من الثلث ـ قد وجد طريقا للعمـــل والرزق ، وخاصة في السعودية والكويت ٠ واذا كانت نسبة البطالة قد قدرت بخمسين في المائة للذكور وتسعين في المائة للاناث ، فدخول الرجال تبدو من الجدول التالي (١٦) بالنسبة لمجموع المشتغلين :

النسبة المئوية للمشتغلين طبقا للدخل السنوي

القطر	أقل من ٢٠٠ دينار	٢٠٠ ـ ١٠٠٠ دينـــار	اكثر من ١٠٠٠ دينار
الاردن	٦٦	٢٠	١٤
غزة	٧٠	٢٠	١٠
سوريا	٦٢	٣٨	—
لبنان	٥٠	٢٧	٢٣
السعودية	—	٧١	٢٩
الكويت	—	٦٠	٤٠
بلاد عربية اخرى	٤٠	٤٠	٢٠
المتوسط	٦١	٢٥	١٤

مما يبين ان ثلثي العاملين هم من ذوي الدخل المتدني جدا ، وان اعلى نسبة منهم تقطن قطاع غزة ثم الاردن فسوريا ·

وتعطينا الرسالة الجامعية القيمة التـــــي قدمتها أميرة حبيبي(١٧) ، فكرة عن التكوين الاجتماعي للاجئين الفلسطينيين : فنسبة ٢٨٪ من اللاجئين الجدد و ٢٤ ٪ من اللاجئين القدامى من المزارعين (*) ، بينما نسبة العمال وأصحاب الدكاكين ٤٤٪ و٢٢٪ على التوالي · ويعزى انخفاض نسبة العمال واصحـاب الدكاكين بين اللاجئين القدامى الى انهم فقدوا ما يملكون من أدوات ومهارة حرفية منذ أمد طويل ·

وكذلك نجد ان ٣٩٪ من اللاجئين لا يملكون ارضا · ومن بين الذين يملكون ، فأن ثلثيهم تقريبا (٦٢ ٪) كانوا يملكون ما بين ٥ و ٤٠ دونما ، اي مساحة صغيرة · وهكذا يتضح ان الاغلبيـــة الساحقة مكونة من صغار المزارعين ومن الفقراء المعدمين · ومـــع ذلك فما يقرب من ٨٠ ٪ من اللاجئين كانوا يقيمون في بيوت يملكونها في الضفة الغربية (قبل ١٩٦٧) ، مما يبرز ان الصفة الغالبة فيهم كونهم ليسوا عمالا زراعيين متجولين او غير متجولين أصلا ، بل نوعا من البورجوازية الصغيرة الريفية أو القروية ·

وقد كان لهذا التكوين الاجتماعي الفلاحي والقروي الصغير دور كبير في تشكيل الخلفية الفكرية لعرب فلسطين ، وهي التـــي كانت لها أهمية بارزة في الحركة الوطنية الفلسطينية قبل قيـــام اسرائيل وبعده بقليل ، والتي عاقت الى حد مـــا تكوين التشكيلات والقيادات الحزبية المعبرة عن الذاتية الفلسطينية القومية · فلـم تكن الحدود الفاصلة بين تلك القومية وبين التيار القومي العربي

العام غير واضحة فحسب ، بل مهدت هذه الحالة الطريق أمام الارتكاز السياسي والعاطفي على فعالية الدول العربية ازاء العدو ، والتوقع مدة طويلة حتمية انتصار هذه الدول على الاشكال الفردية والمشتتة التي اخذتها هجرة العرب أمام الزحف الكبير للصهيونية وانقاذها فلسطين من براثنها (١٨) · ويفسر هذا أيضا الاشكال الفردية والمشتتة التي أخذتها هجرة العرب أمام الزحف الاسرائيلي المسلح في الحروب الثلاثة في أغلب المناطق ، وكذلك التكوينات المبعثرة للمقاومة الوطنية الفلسطينية حتى عام ١٩٦٤ تقريبا · فرغم وجود الرغبة في القتال لاستعادة الحقوق المغتصبة، الا ان الحركة الاجتماعية الناتجة عنها ظلت مدة غير قصيرة دون الوصول الى المستوى المتقدم الذي تستطيع معه القيادة العمالية الاشتراكية وحدها الارتقاء بالحركة اليه · واخيرا ، فما من شك أن القمع الرسمي الذي مارسته الانظمة العربية ازاء الحركة الوطنية الفلسطينية كان له دور غير هين في تأخير تطورها وابقائها بأشكال ضيقة مدة طويلة ·

فالدراسة الاحصائية التي اعتمدت عليها أميرة حبيبي تبين ان ٢١٪ فقط من اللاجئين المجيبين على اسئلتها يشعرون بأن الهزيمة كانت نتيجة لمشاكل داخلية عربية ، وان ٢٣ ٪ منهم فسروا هزيمة العرب عام ١٩٦٧ بعدم وجود غطاء جوي ، و ٢٨٪ أرجعوها الى وجود خونة في صفوف العرب · كما كان ٨٧٪ من اللاجئين الجدد يتوقعون انتصار العرب في حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، بينما كان اللاجئون القدامى أقل تفاؤلا بسبب التجربة التي مروا بها عام ١٩٤٨ · بل ان ٥٥٪ من اللاجئين الجدد و ٤٤٪ من اللاجئين القدامى لم يكونوا مستعدين للحرب ، ففاجأتهم ، اي انهم لم يكونوا مدركين للطبيعة العدوانية الاستعمارية للصهيونية (١٩) · ولا شك أن الخط التهادني الاساسي التي سارت عليه القيادات الفلسطينية السابقة ، واغلب الانظمة العربية آنذاك ، لعب دورا كبيرا في

انخفاض الوعي الفلسطيني لطبيعة العدو ، وبالتالي في تضخيم الرعب الذي داخل نفوس سكان فلسطين عند الانتصار العسكري الاسرائيلي عام ١٩٦٧ ٠

واذا كانت الفواصل شبه العشائرية والريفية والتشتت الجغرافي قد جزأت المجتمع العربي الفلسطيني أفقيا ، فان الفوارق الطبقية الشديدة ، بين الفقراء وصغار الفلاحين والحرفيين من جهة ، وبين بقايا الاقطاع والبورجوازية الكبيرة من جهة اخرى ٠ لعبت دورا عازلا اضافيا في التجزئة الاجتماعية والتفكك السياسي (٢٠) ٠ ولم يتحول ذلك التناقض الطبقي الى دافع للتطور الفكري والنضج السياسي النسبي الا بعد ان بدأت النشاطات الاقتصادية الجديدة تشد المجتمع الفلسطيني العربي الى الامام مرة اخرى ، وان ظلت هذه النشاطات بعيدة الى حد ما عن نسبة كبيرة من اللاجئين المقيمين في المخيمات ٠

ففي بعض مناطق الهجرة الفلسطينية ـ وخاصة الاردن ـ اخذت بعض الارتباطات الاقتصادية تتصل بين معسكرات اللاجئين والمدن ، واستوعبت عجلة الاعمال المختلفة جزءا من الفلسطينيين٠ وفي الوقت نفسه اخذت الروابط المتخلفة في التلاشي بسبب فقدان أساسها المادي ، وتحولت المخيمات الى شبه مجتمع جديد ، كادت تختفي فيه الفوارق الطبقية وانحسر تأثيرها ، بسبب المستوى العام الضعيف للمستوى المعيشي ٠ وظلت التجمعات الفلسطينية في غزة وسوريا ولبنان محتفظة بجنسيتها الفلسطينية ، في حين انطوت تلك الموجودة في الاردن تحت لواء الجنسية الاردنية ، ومع ذلك فالرغبة في العودة ما فتئت الحلقة الاقوى التي ربطت بين الجميع ٠

وبعد عشر سنوات تقريبا من الحرب الفلسطينية الاولى ، بدأت مخيمات اللاجئين تتحول الى وحدات اجتماعية ذات طابع خاص ،

تبادل فيها افرادها خبراتهم وخيبة آمالهم في القيادات السابقة وعداءهم لنموذج التقدم الرأسمالي (الامريكي والاسرائيلي بعد البريطاني) ، وتخضبت فكرياتهم بالبذور الاشتراكية (٢١) على أشكال مختلفة ، وخاصة الطوباوية المعبرة عن البورجوازية الصغيرة ٠

١) قطاع غزة

هذا القطاع عبارة عن شريط ساحلي ، بطول اكثر بقليل من ٤٠ كيلومتر ، وعرض نحو ٦ كيلومترات في المتوسط ٠ وقد أتبع بالادارة المصرية منذ عام ١٩٤٨ ٠ وابان الانتداب البريطاني ، كانت غزة ذات اهمية تجارية ، اذ تقع في ملتقى ثلاثة طرق ، احدها يؤدي الى العقبة جنوبا ، والثاني الى دمشق وبيروت شمالا ، والثالث الى مصر في الجنوب الغربي ٠ وفي ١٩٤٧ كانت هذه المدينة سوقا رائجة ، باعتبارها مركز تجميع وتصدير منتجات منطقتي غزة وبئر السبع من الموالح والقمح والذرة والشعير ٠ كما كانت فيها بعض الصناعات الصغيرة ، وكان يؤمها بعض سكان جنوب فلسطين كمصيف ٠ وكان حجم سكان القطاع حينذاك حوالي ٩٠ر٠٠٠ نسمة (٢٢) ٠

وتغيرت الظروف بعد ضم القطاع الى مصر عام ١٩٤٨ ، اذ أصبح ملحقا بالاقتصاد المصري الاكثر تقدما ٠ كما ان تركز الجنود والموظفين المصريين ووكالة غوث اللاجئين وقوات الطوارىء الدولية (بعد حرب ١٩٥٦) في القطاع ، كل ذلك ادى الى خلق نوع من السوق الحرة فيه ، والى نمو التبادل الخارجي ٠ ومن ناحية اخرى، كان لتدفق اللاجئين المعدمين على القطاع أثره في توسيع سوق اليد العاملة وتخفيض اجورها ، وتسهيل التطور الرأسمالي في القطاع ٠ ونجد ان اجمالي الارض المزروعة قد زادت بنسبة ٥٠٪ تقريبا في الفترة ما بين ١٩٤٨ ـ ٤٩ الى ٥٩ ـ ١٩٦٠ ، في

حين زادت الارض المزروعة بالري بنسبة ٨٠٪ في الفترة نفسها(٢٣)٠ وتضاعفت ارض مزارع الموالح بنسبة ٣٠٠٪ تقريبا ، وقفزت الى ما يقرب من ١٦ ضعفا في عام ١٩٦٦ ، وهذا دليل على اتساع انتشار الاساليب والمنتجات الزراعية التي تتضمن استعمال رأسمال مكثف وارتباطا اوثق بسوق السلع ٠

وفي السنوات الاولى للادارة المصرية بالقطاع ، انكمشت الصناعة الحرفية ، وخاصة النسيج ، ثم ما لبث ان حلت محلها بعض الصناعات الكمالية للملابس الجاهزة بأسماء وماركات أجنبية ٠ وتضاعفت الواردات الى أربعة أمثال ، والصادرات الى ثمانية في الفترة من ١٩٥٠ ـ ١٩٦١ ، فزادت ودائع البنوك حتى بلغت ، عام ١٩٦٦ ، ١٣٫٦ مليون جنيه ٠ ووصل عدد المحلات التجارية الى عشرة آلاف محل (٢٤) ٠ وكان لحصيلة الاموال التي يحولها الفلسطينيون المغتربون الى القطاع ، دور بارز في تنشيط الاستثمار وخاصة في مجالات البناء والتجارة والزراعة الكثيفة الرأسمالية ٠

وفي عام ١٩٦٠ ، كان نصف القوة العاملة من السكان الاصليين مرتبطين بالزراعة ، وكانت البطالة بين هؤلاء السكان تصل الى ٣٥٪ ، بينما وصلت هذه النسبة الى ٨٣٪ بين اللاجئين(٢٥)٠ أما باقي اللاجئين ، فكان نحو نصفهم من العمال المهرة وشبه المهرة ، في حين كان نصفهم الاخر من المهنيين والتجار والمزارعين ٠ وكان هؤلاء اللاجئون يعيشون في مخيمات ضخمة ، ومعروف أن اقساما كبيرة منهم كانت تعيش على المعونة التافهة التي كانت تصرفها لهم وكالة الغوث في صورة انصبة صغيرة من الطعام والوقود والملابس ٠

غير أن هذه الاوضاع البالغة السوء، لم تكن لتمر دون ان يفيد البعض منها ٠ فمنذ عام ١٩٥٩ « لاحظت بعثة وزارة الشؤون الاجتماعية ان تشكيل الجمعيات التعاونية لا يخدم اصحاب المصالح

الحقيقية في التعاون ؛ من صغار الزراع وصغار الملاك · وانما تخضع الجمعيات ، وتدار ، لحساب كبار الملاك والمزارعين في المنطقة ، وتوجه سياستها وخدمتها لصالحهم » (٢٦) ·

فما عدا قلة من كبار الملاك والتجار ، اصبح باقي السكان ـ من لاجئين وسكان اصليين ـ على حافة المجاعة ، وخاصة السكان الاصليون الذين لا يتلقون معونة من وكالة الغوث ·

وفي عام ١٩٥٥ ، كانت أجور العمال المهرة ونصف المهرة قد انخفضت من ١٠٠ قرش يوميا الى ٣٠ قرشا تقريبا ، وتدنت أجور العمال غير المهرة من ٣٠ ـ ١٠ قروش تقريبا · وقامت الحكومة الاردنية ببحث دل على ان متوسط الاجر الشهري في مجال الزراعة كان يساوي ما قيمته ٥ر١٧ دولار في عمان ، و ٦ر١٢ دولار في الخليل و ٢ر١١ في قطاع غزة ، للعمال غير المهرة (٢٧) اي أن الاجور في غزة كانت أشد انخفاضا منها في أي منطقة اخرى بالاردن ·

ولقد عاش سكان القطاع ولاجئوه تحت ادارة غير ديمقراطية، تابعة أساسا لوزارة الحربية المصرية ، وكانت السياسة الرسمية لتلك الادارة تقضي بأن تنصب مشاريع التنمية الاقتصادية لخدمة السكان الاصليين فقط ، باعتبار اللاجئين مشكلة مؤقتة (٢٨) · ومع ذلك فقد ربطت الروح الوطنية شعب غزة بمصر العربية أكثر مما ربطت الضفة الغربية بالاردن ، الامر الذي كان له دور في تخصيب مقاومة الاحتلال الاسرائيلي بعد حرب ١٩٦٧ · أضف الى ذلك أن الادارة الاسرائيلية تسببت في المزيد من البطالة ، وعطلت التجارة الخارجية ، واوقفت صرف مرتبات اغلب الموظفين ، وشنت الحملات الارهابية الشرسة ، مما أشعل الحركة الوطنية في القطاع وميزها عن غيرها من المناطق المحتلة ·

٢) في الاردن

كان عدد سكان شرقي الاردن قبيل عام ١٩٤٨ نحو ٤٦٥ر٠٠٠ نسمة ٠ وزاد عدد الخاضعين للحكم الهاشمي بعد ذلك الى ما يقرب من ١ر٣٧٠ر٠٠٠ نسمة ، يعيش منهم نحو ٨٠٠ر٠٠٠ ـ أي أكثر من النصف ـ في الضفة الغربية وينقسم هؤلاء بدورهم الى ٤٣٠ر٠٠٠ من السكان الاصليين و ٢٧٠ر٠٠٠ لاجئا ٠ أما في شرق الاردن ، فقد تواجد ما يقرب من ١٠٣ر٠٠٠ لاجئا ٠ وفي عام ١٩٦١ قدر التعداد الرسمي سكان الاردن بنحو ١ر٧٠٠ر٠٠٠ نسمة ٠ منهم ما يقرب من نصف مليون لاجيء معدم ٠

وتركزت غالبية الزيادة التي حدثت ، في المدن والمناطق المتاخمة لها، تلك التي تضخمت بصورة غير ناضجة اقتصاديا ، بفعل النسبة الكبيرة من العاطلين الدائمين والذين لم يعد ممكنا تشغيلهم ، فبلغ تعداد اللاجئين في عمان ٤٥٠ر٠٠٠ ، اي ما يقرب من خمس اجمالي السكان عام ١٩٦٨ ؛ وبالقدس القديمة ٨٧ر٠٠٠ وبيتلحم ٥٨ر٦٠٠ ،واريحا ٦٧ر٠٠٠ ونابلس ٢٣ر٠٠٠، والخليل ٣٨ر٠٠٠ الخ ٠٠٠ (٢٩)

وبعد ان كانت امارة شرق الاردن بلادا جرداء ، ذات اقتصاد قبلي ، اعطى لها ضم الضفة الغربية منطقة تساهم بحوالي ٢٦ ٪ من اجمالي الناتج المحلي، وذات نشاط زراعي وحرفي على مستوى أعلى ٠ واتسعت ـ بهذا الضم ـ دائرة المعارضين للحكم الهاشمي اتساعا كبيرا ٠

ولكن التبعية للاستعمار ـ الذي أخلصت له الفئة الاردنية الحاكمة ـ منعت عن الاقتصاد الاردني فرصة النمو الصحيح : فدار ذلك النمو حول التجارة الخارجية اساسا ٠ فبعد ان كانت قيمة الصادرات السلعية ١ر٥ مليون دينار عام ١٩٥٢ ، نراها وقد ارتفعت الى ١٠ر٤ مليون عام ١٩٦٦ ، أي ما يقرب من سبعة

اضعاف · كما زادت قيمة الواردات من ١٧ مليون دينار أردني الى ٦٨ مليونا في الفترة نفسها ، أي نحو أربعة اضعاف (٣٠) ·

ولم تتأثر التجارة الخارجية الاردنية بصورة حادة من اقتطاع الضفة الغربية بعد ذلك ، اذ بقيت الصادرات في حدود ١٤ر٧ مليون عام ١٩٦٩و ١٢ر٢ مليون عام ١٩٧٠ · كما ظلت الواردات بما قيمته ٦٥ر٨ مليونا على التوالي ، مع ارتفاع العجز في الميزان التجاري الى ٣٥ر٦ مليون دينار في عام ١٩٧٠ (٣١) · ذلك ان كتلة البورجوازية التجارية الاردنية والفلسطينية كانت قد ركزت اعمالها في عمان واستمرت تجني الربح من التعامل مع الاسواق الاجنبية كما كانت قبل حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ · ولم يكن « للدعم العربي » ـ الآتي من السعودية والكويت وليبيا ـ ليصيب في شيء البورجوازية التجارية بفضل الدعم البريطاني ثم الامريكي · وكانت الطبيعة الوسيطية (الكومبرادورية) التي تطبعت بها تلك البورجوازية التجارية بفضل الدعم البريطاني ثم الامريكي · وكانت انجلترا وامريكا المصدرين الاول والرابع ، على التوالي ، للواردات الاردنية ، فأتى لبنان وسوريا ـ جارا الاردن ـ في الترتيب الثاني والثالث بعد ذلك ·

صحيح ان الفئات العليا من البورجوازية الوطنية الاردنية قد تضررت نسبيا من العدوان ، وخاصة في مسألة ضيق السوق الداخلي ، غير ان ميزانية الدولة والانفاق الذي يتم من خلالها ازداد عما كان عليه في سنوات ما قبل العدوان · وهذه الزيادة ليست من حيث النمو الرقمي وحسب ، وانما من حيث ضيق الرقعة التي اخذت تنفق هذه الموازنة · وقد قامت السلطة بدفع تعويضات للعديد من الشركات عن الاضرار التي لحقت بها نتيجة الاحتلال · وتشير معدلات الربح في معظم الشركات الكبيرة الى ان هذه الشركات تحقق ارباحا متزايدة ، مثال ذلك الاسمنت والمصفاة · كما ان الفئة البيروقراطية من هذه الطبقة قد حققت مكاسب كبيرة على

حساب المعونة العربية والانفاق الحكومي المتزايد · ولم يختلف الامر كثيرا ، بالنسبة لكبار التجار ، حيث ادت زيادة الانفاق الحكومي ، والمنظمات الفدائية وتزايد عدد السكان بسبب النزوح وتركز المساعدات لهم من الضفة الشرقية ، وارتفاع الاسعار ، الى زيادة في ارباح هذه الفئة من التجار · يضاف الى ذلك ان ارتفاع اجور المساكن قد اضاف ارباحا اخرى لهذه الفئات التي تستثمر قسما من أموالها في امتلاك العمارات السكنية · ولذلك فان هذه الفئات العليا من البورجوازية الوطنية خاصة ، لم تكن لديها قضايا داخلية حادة تجعلها تطرح وتناضل من اجل حكومة الوحدة الوطنية · وهي في الوقت نفسه ، وللاسباب السابقة ، تخشى من تحول الحركة الجماهيرية الى النضال الداخلي كي لا تتعرض مصالحها المؤمنة حاليا ، للاخطار · ومن هنا كان تجاوبها مع المنظمات الفدائية التي كانت تفصل بين مهمات النضال ضد الاحتلال والمهمات الداخلية ، التي يسهل حلّها تشديد ذلك النضال · ومما يؤكد عدم اهتمامها بحل هذه المهمات موقف بعض ممثليها اثناء وجودهم في السلطة ، ذلك الموقف المتسم باللامبالاة والذيلية لممثلي كبار الملاكين العقاريين وكبار الرأسماليين(٣٢) ·

ولكن هذا لا ينفي كره هذه الفئات للاحتلال ورغبتها في ازالته ، لاسباب اقتصادية وسياسية ؛ حيث يمثل هذا الاحتلال خطرا مستمرا عليها وعلى مستقبل نموها كما تتصوره هي · كذلك تخيفها الاطماع الصهيونية التوسعية ولا تثق بطبقة كبار الملاكين العقاريين التي تفرط في مصالحها من خلال تسوية استسلامية · يضاف الى هذا كون المشكلة برمتها تمثل قضية قومية ترتبط بها ، وتتأثر ايضا ، الفئات العليا من البورجوازية · وبالتالي فليس هناك استبعاد لامكانياتها في النضال ضد الاحتلال ، وان كانت هذه الامكانيات جد متواضعة ، بحيث لا تؤهل تلك الطبقة من احتلال موقع اساسي في التحالف الوطني (٣٣) ·

ووجهت السيطرة الاستعمارية الاقتصاد الاردني نحو خدمة اغراضها الاستراتيجية بصورة أساسية ، وخاصة في تطوير النقل الداخلي · فزاد عدد القاطرات من ٧ عام ١٩٥١ الى ٢٦ عام ١٩٧١ ، والسيارات من ٣٫٠٠٠ الى ٢١٫٠٠٠ في الفترة نفسها(٣٤) وقد انهالت على الاردن المساعدات والهبات المالية من الدول الامبريالية ، وبلغ مجموعها في عشر سنوات (١٩٥٧ ـ ١٩٦٧) ما يزيد على ٥٩٠ مليون دولار ، انفقت على الادارة والجيش وأجهزة القمع والمشاريع غير الانتاجية ، أساسا · واحتلت الولايات المتحدة المركز الاول في هذه المساعدات بعد بريطانيا ، ثم حل محلها الدعم العربي بعد مؤتمر الخرطوم (آب ـ اغسطس ـ ١٩٦٧) · وقد فتحت الحكومة الاردنية أبواب البلاد للشركات الانجليزية والامريكية والالمانية الغربية في أعمال المقاولات المختلفة (مثل ميناء العقبة) والتنقيب عن البترول واقامة بعض الصناعات (الاسمنت ، الكيماويات) · وظلت النسبة الكبرى من الانفاق الحكومي (بين ٤١٪ و ٥٢٪) تذهب الى «الدفاع(٣٥) اسما والى قمع الحركة الوطنية الفلسطينية فعلا ·

والولايات المتحدة ، المنفق الرئيسي على جيش الاردن واسرائيل معا ، تعتبر الاردن «عائقا» أمام نظم الحكم العربية التقدمية · والوظيفة الرئيسية لهذا الجيش هي قمع المعارضة لنظام الحكم · وهذا هو السبب في أن حوالي ثلث الميزانية مخصص للمحافظة على الجيش وما يسمى بقوات الامن الداخلي ، مما يؤدي الى تفاقم المصاعب الاقتصادية للبلاد · وقد وصلت جملة هذه النفقات في عام ١٩٥٢ الى ٥٣٫٥ مليون دينار ، أي ما يوازي الاستثمار في الزراعة (٢٧٫٦ دينار) والصناعة (٢٦٫١ مليون دينار) معا · والجيش المرتبط بالفئات العليا القبلية والبورجوازية لا يزال هو المعقل الرئيسي للعرش الهاشمي(٣٦) ·

وفي سنة ١٩٦٩ كان اجمالي الناتج المحلي الاردني يتكون في ١٩٪ منه من الزراعة ، و ١١٪ من الصناعة والمناجم ، و ٥ ٪ من الانشاء ، و ٨٪ من النقل ، و ٢٠٪ من التجارة ، و ١٨٪ من الادارة العامة والدفاع ، و ٩٪ من الخدمات الاخرى (٣٧) ، أي ان الخدمات تحتل المركز الاول في الميادين المدرة للدخل ، مما يترتب عليه تشويه في التكوين الاجتماعي ، رغم أن اجمالي الدخل القومي زاد بمعدل ٨٪ سنويا في الفترة ما بين ١٩٥٤ و ١٩٦٦؛ وذلك بان زاد نصيب الخدمات في الدخل القومي من ٥٥٪ الى ٦٦٪ في هذه الفترة ، مع هبوط نصيب الزراعة من ٢٩٪ الى ١٩٪ ، وان كان نصيب الصناعة قد ارتفع من ٦٪ الى ١٢٪ ، الا ان الصناعة انحصرت في المنتجات الاستهلاكية الخفيفة ٠

ولا تتخذ الخطة الثلاثية التدابير اللازمة لايجاد اقتصاد سليم عن طريق نمو الانتاج وتوسعه ، فهي تركز مرة اخرى على الخدمات فتعمل على زيادة عدد الوظائف فيها الى ١٨٫٠٠٠ مقابل ١١٫٠٠٠ وظيفة في قطاعات الانتاج ٠ وسوف تتحقق الزيادة في واردات الدولة الداخلية ، طبقا للخطة ، أساسا عن طريق رفع الضرائب ، مع اتخاذ التدابير لمضاعفة الضرائب المباشرة تقريبا ، وزيادة الضرائب غير المباشرة بنسبة ٣٥٫٤ بالمئة مما سيؤثر اساسا على الشغيلة ٠ والمستويات المنخفضة في الزراعة والصناعة ترغم الاردن على أن تكون معظم وارداتها من الطعام والبضائع الاستهلاكية ٠ وقد وصلت قيمة جملة الواردات في سنة ١٩٧٠ الى ٦٧٫٨ مليون دينار ، مع وجود عجز في الميزان التجاري مقداره ٥١ مليون دينار ٠ وتؤدي الخطة الثلاثية الى عجز ضخم في الميزان التجاري ٠ وسوف تصل الواردات في عام ١٩٧٥ الى ١٠٢ مليون دينار ، في حين أن الصادرات لن تصل الا الى ٢٣ مليون دينار (مقابل ١٥ مليون دينار في سنة ١٩٧٢) ٠ وسوف يغطى العجز من «المساعدة الاجنبية» (٣٨) ٠

وقد استطاع قسم من الطبقة المالكة الاستفادة من هذه الاوضاع الصحيحة ؛ فأتى القطاع الخاص بنسبة ٥٧٪ من اجمالي الاستثمارات الاردنية في الفترة ما بين ١٩٥٩ ـ ١٩٦٦ (٣٩) ٠ واتبعت البيروقراطية الاردنية الاساليب الاستعمارية المشهورة ازاء الارصدة الحكومية ، فرأيناها تزيد احتياطيها من النقد الاجنبي من ٤٦ مليون دولار الى ١٦١ مليونا في الفترة من ١٩٦٠ ـ ١٩٦٦ ، رغم انخفاض مستوى الدخل العام للاردنيين ، والذي لا يبلغ متوسطه اكثر من ٢١٤ دولار سنويا ، مما يضعهم في صف واحد مع سكان ماليزيا (٤٠) ٠ ونتيجة لتضخم الاجهزة الحاكمة ، نما جناح بورجوازي جديد ، هو الجناح البيروقراطي الذي يستغل مراكزه في تسهيل أعمال أفراده وتحقيق الثراء غير المشروع بصورة طفيلية ٠ كما أن ذلك التطور المشوه للاقتصاد الاردني لم يغير طبقة الاقطاعيين وزعماء العشائر بشكل عميق ٠ ولهذا التكوين المتخلف والطفيلي للطبقة السائدة في الاردن اثر كبير على مواقفها السياسية ٠

ولقد استطاعت الصناعة أن تنمو رغم ذلك ٠ ففيما بين ١٩٥٤ و ١٩٦٨ زادت قيمة الانتاج الصناعي السنوي من حوالي ٧ ملايين دينار الى ٤٠ مليونا ، وارتفع عدد العاملين في الصناعة من ٧٫٣٠٠ الى ٣٢٫٨٠٠ ، وقفزت قيمة الاجور والمرتبات المدفوعة سنويا للعاملين في مجال الصناعة من ٧٠٠٫٠٠٠ دينار الى ٤٫٨٠٠٫٠٠٠ دينارا (٤١) ٠ وتركزت هذه الصناعة في عمان ونابلس ، وتنتج ٦٥٪ من المنشآت الصناعية المنتجات الغذائية والملابس ؛ غير أن الجزء الاكبر من الدخل الصناعي يأتي من الصناعات الرئيسية الثلاثة (استخراج الفوسفات ، انتاج الاسمنت، وتكرير البترول) (٤٢) ٠

وفي سنة ١٩٥٥ كان نصيب الصناعة ٥٪ من الدخل القومي، وبعد عشرين سنة تقريبا كان نصيبها لا يزال ١٠٪ فقط من الدخل

القومي · والغالب في الصناعة هي الورش شبه الحرفية التي تضم عددا قليلا من الآلات · ولا يعمل في المؤسسات الكبيـــرة نسبيا (بالمعايير الاردنية) ، التي تستخدم اكثر مـــن ٢٥ شخصا ، الا ٧٫٠٠٠ عامل ، أي ١٫٤ ٪ من مجموع قوة العمل · ويشكل العمال في جميع مؤسسات الصناعة الحرفية الاخرى ١٥٪ من مجموع قوة العمل (٤٣) ·

وقد عززت سياسة الاستعمار الجديد التـــي تتبعها الدول الامبريالية نمو البورجوازية المحلية التي تعمـــل كوسيط لرأس المال الاجنبي وشريك صغير له · ويمتلك قسم معين من البورجوازية مؤسسات صغيرة تتولى تصنيع المنتجات نصف الجاهزة المستوردة، أو تعمل في انتاج سلع أجنبية · وتعمـــل مؤسسات أخرى في الانشاء ، وأساسا كمقاولين ثانويين للشركات الاجنبية التي تعمل طبقا لعقود مبرمة مع الدولة · ولما كانت الدولة تقـــدم مساعدة مباشرة ووضعا أفضل لرجال الاعمال المحليين ، فمن الطبيعي أن يكون هذا القسم من البورجوازية مهتما الى أقصى حـد بالسياسة المالية للامبريالية التي يتبعها النظام · ويتولى أفراد مـــن هذه البورجوازية مناصب في الجيش والاجهزة الادارية كذلك، الى جانب شيوخ العشائر ومالكي الارض(٤٤) ·

والزراعة التي يعمل فيها ٤٥٪ من السكان المنتجين ، هـــي القطاع الرئيسي في اقتصاد الاردن ، ونصيبها من صادرات الاردن يصل الى اكثر من النصف (ولكن نصيبها من الدخل القومي ٢٠ ٪ فقط) · والسياسة الزراعية الموجهة الى المحافظة علـى التركيب القبلي لسكان الريف والابقاء على العلاقـات الاجتماعية واساليب الزراعة القائمة ، حكمت على الريف بالتخلف الشـــديد · وتؤدي الزراعة البدائية والادوات العتيقة الـى انخفاض انتاجية العمل والدخل بالنسبة للفرد · ويوجد كذلك نقص شديد فـــي الاراضي الزراعية ، الا ان ما يزرع من الاراضي الصالحة للزراعة في الاردن،

والتي تبلغ مساحتها ١٣ مليون دونم ، لا يزيد على ثلاثة ملايين دونم · بل أن الزراعة لم تبدأ الا في الآونة الاخيرة في الاراضي الخصبة في وادي الاردن (الاغوار) · ومع تركز ملكية الارض ، تقع المساحات الصغيرة من الارض التي يمتلكها الفلاحون في أيدي الكولاك الاغنياء · ونتيجة لذلك ، يغدو الفلاحون الفقراء مرغمين على القيام بأعمال موسمية مقابل أجر ، او الالتحاق بالجيش ، او الهجرة الى المدن وزيادة عدد العاطلين(٤٥)·

وعند ضم الضفة الغربية الى الاردن ، كانت بقايا النظم القديمة لملكية الارض لا تزال عالقة بها ، اذ كانت نحو ١١٪ منها تدار على أساس الملكية المشتركة ، وذلك مع ان الاغلبية الكبيرة من الفلاحين كانوا يملكون مساحات صغيرة من الارض · غير أن الاوضاع الاقتصادية والسياسية الجديدة أنمت طبقة كبار الملاك ، وسجل تعداد عام ١٩٥٣ أن ٢٢ حيازة تزيد على الفي فدان (أي ٨٠ر٠٠٠ دونم) · وكان الحكم السياسي الاستبدادي قد فتح أمام الاسرة الحاكمة ، ومن يلتف حولها من كبار المشايخ ، الطريق للاستيلاء على اراض واسعة · فللملك حسين وحده اكثر من ١٠٠ر٠٠٠ دونم ، وهناك ٢٢ حيازة يملك صاحب كل منها أكثر من عشرة آلاف دونم ، و ٤٥ حيازة تتراوح بين ٢ر٠٠٠ و ٥ر٠٠٠ دونم ، و ٤٢١ حيازة كل منها ما بين ١ر٠٠٠ و ٢ر٠٠٠ دونم(٤٦) · وقد ادخل بعض المشايخ الآلات الزراعية في أراضيهم ، كما حصل البعض الاخر على أراض خصبة في وادي الاردن عام ١٩٥٥ ، مكافأة على خدماتهم للشريف حسين بالتعاون مع لورنس ابان الحرب العالمية الاولى (٤٧) · ومعظم كبار مالكي الارض من الشيوخ وزعماء القبائل · والتقليد المتبع هو ان تخصص لهم الدولة مبالغ كبيرة من المال ، وكذلك مساعدات عينية ، بزعم اشباع احتياجات قبائلهم والمحافظة على «التوازن» بينها · وكان الذي يتولى توزيع هذه المساعدة في الماضي هو رئيس أركان حرب القوات

المسلحة البريطاني ، بيك باشا وجلوب من بعده ، وتتولاها اليوم منظمات مثل مجلس العشائر وجمعية الائتمان الزراعي وغيرهما · ويعين الشيوخ وافراد عائلاتهم في مناصب مهيمنة في الجهاز الاداري وفي الجيش ، وبذلك تتدعم قبضة الفئة العليا الاقطاعية على القوات المسلحة والحكومية· وتمنح مساعدة الدولة لكبار مالكي الارض لتبدو وكأنها مساعدة للقبيلة بأكملها · وكان من نتائج ذلك ان اتصف التمايز الطبقي في الريف الاردني بالبطء· وقداتخذ تركيز الملكية الزراعية اشكالا غريبة · فزعماء القبائل غير مهتمين بزيادة مساحة الارض التي يملكونها ، لانهم يتلقون مساعدة مالية كبيرة من الدولة ، بل أن بعضهم تخلى عن الزراعة تماما · وهذا يوضح السبب في ان معظم الاراضي في الاردن في ايدي صغار المالكين · ولا يمتلك كبار مالكي الارض ، والذين يكونون ٢٩٪ر٠٪ من السكان ، اكثر من ٤٪ من الاراضي المزروعة ، وهو وضع فريد بالنسبة لبلد متخلف · على أن هذه الاراضي هي أفضل المزارع والمراعي وموارد المياه ، مما جعل نصيبها من اجمالي الدخل من الزراعة يصل الى ١٧٪(٤٨) · ويختلف الفلاحون في الضفة الغربية عن أقرانهم في الضفة الشرقية ، في أنهم لا يتلقون اية مساعدة من الدولة ، ولا يحصلون على أسعار مضمونة لمحاصيلهم الزراعية · ويعجز أغلبهم عن تحقيق التوازن بين دخله ومصروفاته الا بواسطة المساعدة التي يتلقاها من اقربائه العاملين في البلدان العربية الاخرى (٤٩) ·

وبعد ضم الضفة الغربية للاردن ، تأثر الاقتصاد الاردني ، بسبب وجود عدد من الفلسطينيين الذين يملكون أموالا سائلة ، أو يتمتعون بمستوى عال من المهارة الحرفية · وفي ١٩٦١ كان نحو ٢٣٪ من السكان الاردنيين نشيطين اقتصاديا ، وكانت النسبة بين الرجال فقط تبلغ ٤٢٪ (٥٠) · وتراوحت تقديرات البطالة ما بين ٥٠ر٠٠٠ و ١٠٠ر٠٠٠ عاطلا · وأثبتت الاحصائيات ان السكان

النشيطين اقتصاديا يبلغون نحو ٣٩٠ر٠٠٠ فردا ٠ وكان توزيعهم كالآتي ، طبقا لميادين النشاط (٥١) :

توزيع النشيطين اقتصاديا في الاردن طبقا للميادين، للعام ١٩٦١

الميدان	العدد	النسبة٪
توزيع النشيطين اقتصاديا في الاردن طبقا للميادين، للعام ١٩٦١		
المناجز والمحاجر	٩ر١٨٦	٢ر٤
الصناعة التحويلية	٣٢ر٧٤٦	٨ر٤
الانشاء	٤٠ر١٥٩	١٠ر٣
الكهرباء والماء الخ	١ر٥٧٢	٠ر٤
النقل والتخزين والمواصلات	١١ر٨٩٩	٣ر١
الخدمـــات	٥٣ر٥٢٥	١٣ر٧
غيـــر موضح	٧١ر٧٧٨	١٨ر٤
المجمـــوع	٣٨٩ر٩٧٨	١٠٠

كما ان توزيع ذلك العـــدد طبقا للموقف من ملكية وسائل الانتاج كان كالآتي :(٥٢) :

العلاقة بملكية وسائل الانتاج

النـــوع	العدد	النسبة٪
صاحب عمل ويعمل لحسابه	١٢٠ر٨١٥	٣٠ر٨
عامل بأجر او مرتب	٢١٥ر٦٦٤	٥٥ر٤
يعمل من الاسرة	٢٦ر٠٠٥	٦ر٧
يبحث عن العمل لاول مرة وغير محـــدد	٢٧ر٤٩٤	٧ر١
المجمـــوع	٣٨٩ر٩٧٨	١٠٠

ويبين هذا اتساع الطبقة المجردة من وسائل العيش سوى الاجر الذي يتقاضونه عن العمل الذي يؤدونه · وسنلاحظ دور هؤلاء الكادحين المتزايد في الحركة الوطنية بالاردن · وقد زادت نسبة المشتغلين في الصناعات التحويلية بنسبة ٤٠٪ في الفترة من عام ١٩٦٣ ـ ١٩٦٩ (٥٣) ·

وقد ارتبط نمو النشاط الاقتصادي الرأسمالي في الاردن بانتشار التعليم بصورة خاصة ، لعله اكبر منه في سائر البلاد العربية · فبلغ عدد التلاميذ في المدارس الابتدائية عام ١٩٦٩ نحو ٢٥٩ر٠٠٠ تلميذ ، وعدد الطلبة في المدارس الثانوية ٨٨ر٠٠٠ · كما زاد توزيع الصحف من ١١ر٠٠٠ نسخة عام ١٩٤٩ الى ٥٦ر٠٠٠ عام ١٩٦٩، وقفز عدد أجهزة استقبال الاذاعة من ٢ر٠٠٠ الى ١٥٠ر٠٠٠ جهاز(٥٤) ·

ومن الناحيتين الاجتماعية والسياسية ، كان لذلك التطور أثره في اشتداد ساعد البورجوازية الوطنية الاردنية ، وانتعاش الحركة الثقافية ، وظهور الحركة النقابية والتنظيمات العمالية والطلابية ، وكذلك ظهور الاحزاب العقائدية ، مثل حزب البعث العربي الاشتراكي (تأسس في دمشق ، ١٩٤٧ ، ثم أقام له فروعا في البلدان العربية) ، وحركة القوميين العرب ، ١٩٤٨ ، والحزب الوطني الاشتراكي ، ممثلا للبورجوازية القومية عام ١٩٥٤ · وكان الحزب الشيوعي الاردني قد سبقهما تاريخيا ، اذ تأسس في ١٩٥١ نتيجة اندماج بعض الحلقات الشيوعية في شرقي الاردن بقضية التحرر الوطني الفلسطينية التي كانت قد تشكلت عام ١٩٤٣ ·

وقد حكمت السلطة الاردنية الشعب الخاضع لها بمختلف وسائل القهر والقمع · وبلغت الضرائب غير المباشرة (وهي التي تثقل كاهل الفقراء والكادحين أساسا) في عام ١٩٦٩ نسبة ٩٠ر٣٪ من مجموع حصيلة الضرائب(٥٥) · وخصصت الحكومة للجيش

٤٦ر٦ ٪ من مجموع مصروفاتها لعام ١٩٧٠ ، وللاشغال العامة ٢٨ر٣ ٪ وللصحة ٦ر٢٪ وللتعليم ٦ر٧٪ (٥٦) · هذا علاوة على الارتفاع الكبير في الاسعار الذي حمل الشعب المزيد من الاعباء · اذ زاد الرقم القياسي لاسعار الاغذية في عمان بنسبة ٢٨ ٪ فيما بين ١٩٦٧ و ١٩٧٠ (٥٧) ·

واذا كان مشايخ القبائل وكبار الملاك هم السند الاجتماعي للحكم في الاردن ، فان البورجوازية البيروقراطية الناشئة هي القوة التي تؤازره ، والتي تزداد في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية الاردنية · وتتكون البورجوازية البيروقراطية في الاردن ، في معظمها ، من مواطني الضفة الشرقية · وقد اجتذبت الصفوة الحاكمة كذلك أقساما كبيرة من البورجوازية الصغيرة ، في الضفة الشرقية في أجهزة الدولة المختلفة ، وبذلك أضافت مزيدا من القوة الى روابط الدولة بسكان الريف والقبائل (٥٨) ·

وقد ظلت السلطات الاردنية منذ أن ضمت الضفة الغربية الى المملكة ، تتبع بشكل ثابت التفرقة ضد الفلسطينيين · ولم يحدث اندماج كامل بين سكان الضفتين ، وتكونت في داخل كل فئة اجتماعية مجموعتان على أساس التفرقة الاقليمية · وقد بقيت البورجوازية الفلسطينية ، رغم أنها ازدهرت في الصناعة والتجارة، في وضع من الدرجة الثانية في سلسلة الوظائف العسكرية والبيروقراطية ، ووزنها السياسي أقل كثيرا من الوزن السياسي لقرينتها الطبقية بالضفة الشرقية · وقد ساهمت جملة عوامل في تكريس سياسة التفرقة هذه ضد البورجوازية الفلسطينية · نتيجة لان المجتمع الفلسطيني اكثر تقدما من الناحية الاجتماعية ، ولان الروابط القبلية قد اختفت تقريبا ، فان البورجوازية الفلسطينية تفتقر الى النفوذ بين الجماهير حتى في الضفة الغربية· وبسبب ذلك ظلت الامبريالية تتردد في ترقية الفلسطينيين الى مناصب سياسية هامة · وقد انشأ التمييز الجغرافي اختلافات في

التناقضات بين الدولة والسكان في كل من ضفتي الاردن · وهـذه الاختلافات قامت عقبة كأداء في طريق القيام بعمل موحد فعال في نطاق الفئة الاجتماعية ذاتها · وزيادة على ذلك ، يثير الرجعيون قسما من الفئة الاجتماعية ذاتها ضد قسم آخر · ولا يستثنى مـن ذلك الطبقة العاملة الصغيرة في الاردن (وأغلبها من الفلسطينيين) · وكل هذا يلائم الدوائر الحاكمة ، طالما انه يتيح لها ان تموه الاهداف الطبقية لسياستها بالحديث عن المشكلات «القومية» والهبوط بالنضال القومي الى مستوى قضية أقليمية · وقد أدت هذه السياسة ، بغير شك ، الى تشويه الصراع الطبقي ، وحدت من تأثيره على الحركة الوطنية ، وعززت الاتجاهات اليمينية · وساهمت هذه السياسة ـ في الوقت نفسه ـ في الانعطاف نحو اليسار بيـن الفلسطينيين وانتشار الاتجاهات الديمقراطية المعادية للامبريالية · وقد عجـل رد الفعل الحاد للتمييز الجغرافي في نمو الوعي السياسي بيـن الفلسطينيين ، الذين اكتسبوا الثقة في أنفسهم من اشتداد النضال ضد الاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية بعد حرب ١٩٦٧ (٥٩) ·

٣) في ظل الحكم الاسرائيلي

بقي في الاراضي التي أقامت عليها الصهيونية دولتها ، عام ١٩٤٨ ، نحو ١٦٠ر٠٠٠ عربيا ، ووصل هذا الرقم الـى حوالي ٢٢ر٠٠٠ عام ١٩٥٨ ، أي ما يقرب من ١٧ ٪ مـن مجموع سكان اسرائيل ، ثم قفز هذا الرقم عام ١٩٦٨ الى ٣١٣ر٠٠٠ تقريبا(٦٠) فاذا أضفنا الى هذا الرقم ، سكان الضفة الغربية وقطاع غزة ، فان عدد العـرب في الاراضي المحتلـة كلها يصل الـى ما بين ١ر٤٦٠ر٠٠٠ ـ ١ر٧٠٠ر٠٠٠ ، وهو ما يوازي نحو ٤٠٪ من جملة سكان اسرائيل والمناطق المحتلة اثر حرب ١٩٦٧ ·

ومع كل القهر الذي مارسته السلطات الاسرائيلية ضد العرب

فيها ، فان هؤلاء نجحوا في قطع شوط غير هين فـي طريق النمو الرأسمالي ، الامر الذي فـــرض على الظـــروف الاقتصادية والاجتماعية العربية في اسرائيل اوضاعا جديدة ٠

حيث بلغت نسبة الانضمام للقوى العاملة حوالي ٤٦٪ مـن العرب في المتوسط و ٨٢٪ للرجال فقط (٦١) وتطور التوزيع المهني للنشيطين اقتصاديا من عرب اسرائيل ، طبقا للجدول التالي (٦٢) :

التوزيع المهني للعرب النشيطين اقتصاديا في اسرائيل (٪)

الميـــدان	عام ١٩٦١	عام ١٩٦٦
الزراعة والتحريج وصيد الاسماك	٤٧ر٩	٣٩ر١
الصناعة والحرف والتعدين	١٤ر٧	١٤ر٩
البناء والاشغال العامة	١٥ر٦	١٩ر٦
الكهرباء والخدمات الصحية	٠ر٧	٠ر٨
التجارة والمصارف والتأمين	٦ر٧	٧ر٤
النقل والمواصلات	٣ر٤	٦ر٠
الخدمـــــات	١٠ر٨	١٢ر٠
ميادين اخـــرى	٠ر٦	ـــــ

ويوضح هذا الجدول اضطراد هبوط نسبة العرب المشتغلين بالزراعة مع ازدياد نسبة المشتغلين منهم بالصناعة والبناء ، وتضم الزراعة عددا متزايدا من العمال الزراعيين العرب ، بلغ عددهم عام ١٩٦٦ نحو ٦٥ر٠٠٠ عامل زراعي تقريبا ، علاوة على ٨ر٠٠٠ آخرين عاطلين عن العمل (٦٣) ٠

ونصف العمال العرب ــ عموما ــ من العمال المتجولين ، الذين يقيمون في القرى ، غير ان اعدادا متزايدة منهم اخذت تتركز في منطقة حيفا (٦٤) ٠ ويعني هذا كله تكوين طبقة عاملة عربية ، تعمل

اساسا في الزراعة وبالمهن ذات التركيز الرأسمالي الضعيف والطبيعة الموسمية ، وبوسائل انتاج متخلفة نسبيا ٠

وقد أجبر العرب على ترك الارض التي كانوا يفلحونها ، بفعل أساليب القهر والاضطهاد الاقتصادي والسياسي الاسرائيلية، وأخذت قطاعات واسعة منهم تعمل لمجرد سد رمقها ٠ فتدفقت الى المدن الاسرائيلية بحثا عن عمل ، رغم قيود الحكم العسكري ، وظلت الاعمال الصناعية « الزاقية » محرمة عليهم ، مما زاد من حجم القوة العاملة في الاعمال التي لا تتطلب مهارة كبيرة ، وأبقى أجورهم في مستوى منخفض ٠ فأجر العامل العربي في اسرائيل يتراوح بين نصف وثلاثة ارباع أجر العامل اليهودي الذي يقوم بالعمل نفسه(٦٥) ٠ وان كان هذا الفارق قد اخذ في التقلص في السنوات الاخيرة ؛ بسبب ندرة اليد العاملة ، وكفاح العمال العرب المتواصل من أجل تحسين أحوالهم ٠ واذا كان الهستدروت قد رضي بتنظيم العمال العرب في صفوفه ، حيث بلغوا عام ١٩٦٢ نحو ٢٦٫٧٠٠ عضوا زادوا الى ٤١٫٠٠٠ تقريبا عام ١٩٦٦ ٠ الا أن الهستدروت حرمهم من التمتع ببعض الحقوق الرئيسية للاعضاء اليهود ، من التأمينات الاجتماعية ٠ هذا في حين انتظم العمال العرب الذين يعملون لدى اصحاب اعمال عرب ، في « مؤتمر العمال العرب » الواقع تحت نفوذ الحزب الشيوعي ـ القائمة الجديدة (ركاح) ٠

وبعد احتلال اسرائيل لقطاع غزة والضفة الغربية ، في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، اجتهدت السلطات الاسرائيلية لجذب عرب هاتين المنطقتين للعمل في الانشاء والزراعة ورصف الطرق ٠ وأجور هؤلاء العمال الجدد جد منخفضة ، مما مكن المقاولين الاسرائيليين من جني ما بين ٦٠ ـ ٧٠ مليون ليرة اسرائيلية أرباحا سنوية(٦٦) ٠ وأخذ قطاع غزة يتحول الى مركز صناعي اسرائيلي ، وهيمنت اسرائيل اقتصاديا على المناطق المحتلة الجديدة ؛ حيث

شكلت البضائع الاسرائيلية نحو ٩٠٪ من مجموع واردات تلك المناطق ، وهي تشكل نحو ١٥٪ من جملة الصادرات الاسرائيلية الصناعية · في حين استوردت اسرائيل ـ عام ١٩٦٨ ـ من قطاع غزة والضفة الغربية ، بما قيمته ٢٠ مليون دولار ، أي نحو ١٥٪ من مجموع وارداتها الزراعية · ونظرا لرخص العمل العربي ، فقد كان الميزان التجاري الاسرائيلي مع هاتين المنطقتين لصالح اسرائيل دائما ، وارتفع رصيدها في هذا المجال من ١٣٠ مليون ليرة اسرائيلية عام ١٩٦٨ الى ٢٠٠ مليون ليرة عام ١٩٧٠ (٦٧) ·

ونظرا لاهمية الزراعة في الاقتصاد الفلسطيني العربي ، فقد تأثرت بشكل خاص من القهر الذي تمارسه السلطات الاسرائيلية ضد العرب · ولا يرجع هذا ـ فقط ـ الى استيلاء الاسرائيليين على المساحات الواسعة من الاراضي الزراعية التي تركها الفلسطينيون الذين هاجروا عام ١٩٤٨(*) ، ولا الى استيلاء السلطات الاسرائيلية على مساحات أخرى من ممتلكات العرب الذين بقوا في بلادهم عام ١٩٤٨ (**) · بل يعود ـ أيضا ـ الى سحق النظام الرأسمالي الاسرائيلي للاقتصاد الزراعي العربي ، الفقير ، والمتخلف بفعل اجراءات الانتداب البريطاني والاحتلال العثمانيمن قبله ·

ويقول كاتب اسرائيلي أنه « في السنوات الاولى لقيام الدولة، كان وضع المزارع العربي خطيرا ··· وكانت السياسة التي اتبعت مع القرى العربية ، على الاقل حتى عام ٥٢ ـ ١٩٥٣ ، سياسة جمود وتفرقة صارخة · فأن القرية العربية تضطر الى أن تبيع غلاتها بأسعار منخفضة كثيرا وبشروط أسوأ بكثير من غلات المزارع اليهودية · فالمزارع العربي يضطر ـ بسبب انعدام حرية الانتقال ـ لان يبيع غلاته لمحتكري شراء غلات القرية العربية · وكان يسمح للشركة اليهودية او للتاجر اليهودي بأن يدفع مقابل الغلات العربية أسعار منخفضة الى حد كبير عن اسعار السوق (تصل أحيانا الى

الثلث او النصف) على أن يدفع نسبة معينة من الفرق الى الخزائن الحكومية ... وأدت هذه السياسة ـ التي كانت تفضي الى عدم تغطية ايرادات الغلات لنفقات الانتاج التي يتكبدها المزارع العربي ـ الى خفض انتاج القرى العربية ... واذا أدخلنا في اعتبارنا أن التناقض الاجتماعي (قلة من كبار الاغنياء مقابل عدد كبير من الفقراء) أكبر في القرية العربية منه في القرية اليهودية ، يبدو أن مستوى الغالبية العظمى لاهالي القرية العربية (بالمقارنة بمستوى معيشة المزارعين اليهود) أقل انخفاضا مما يمكن استخلاصه من البيانات التي تقوم على أساس المعدل الاحصائي (٦٨) .

وفي عام ١٩٦١ كان الفلاحون العرب يشكلون نحو ٣٨ ٪ (حوالي ١٣١٫٠٠٠ نسمة) من مجموع سكان الريف في اسرائيل، غير أنهم لم يكونوا يزرعون سوى ٢١ ٪ من الارض الزراعية (حوالي ٧٨٥٫٠٠٠ دونم) ، وينتجون ٦٪ من مجموع الانتاج الزراعي في اسرائيل ، ولا يعملون الا على ٢٪ من مجموع الاراضي المروية . وفي حين كان متوسط نصيب اليهودي الريفي ١٠٫٨ دونم، كان نصيب الفلاح العربي ٢٫٢ دونم فقط . وربما يعود انخفاض مستوى الانتاج العربي الى أن حوالي ٧٠٪ من الاراضي التي يقوم بزراعتها المزارعون العرب في اسرائيل هي مناطق جبلية أولا .. ولحرمان العرب شبه الكامل من الاراضي المروية ثانيا (وصلت عام ١٩٦٨ الى ٤٪ من مجموع الاراضي المروية ، ومنحت ١٪ من المياه الممنوحة للزراعة) ... وثالثا لان الوحدات الزراعية الصغيرة جدا في الجانب العربي ، كان يستحيل معها ادخال النظام الآلي والزراعة المجدية ... وأخيرا بسبب هبوط نصيب الزراعة العربية الى حوالي ١٪ من ميزانية التنمية في اسرائيل (٦٩) .

وأدى هذ كله الى أن يصبح متوسط انتاج الدونم الواحد ـ عام ٦٢ ـ ١٩٦٣ ـ في الريف العربي الفلسطيني ٧٢ ليرة اسرائيلية ، في حين وصل في الجانب اليهودي الى ٣٤٩ ليرة ،

مقابل ٩ ليرات عام ٥٠ ـ ١٩٥١ في الدونم العربي و ٣٤ ليرة في الدونم الاسرائيلي للسنة المذكورة (٧٠) ٠

وتتفنن الحكومة الاسرائيلية في ابتكار الاساليب التي تعرقل تقدم الزراعة العربية في اسرائيل ٠ فبالاضافة الى الاساليب السابق ذكرها ، يقول كاتب اسرائيلي أنه (٧١) :

(١) فيما بين ١٩٥٩ ـ ١٩٦٤ ، أوصلت بشبكة الكهرباء ١٢ قرية عربية مقابل ٧٥٠ مستوطنة يهودية في المدة نفسها ؛

(٢) أنشيء في السنوات العشر الاولى لقيام اسرائيل ، ١٦ مدرسة زراعية ، لم تخصص أي منها للطلبة العرب ٠ وبلغ عدد الطلبة اليهود في المدارس الزراعية ، عام ٥٧ ـ ١٩٥٨ ، نحو ٧٫٤٢٠ طالبا ، بالاضافة الى ١٫٥٠٠ في معاهد التأهيل و ٣٫٥٠٠ في معاهد الدراسة التكميلية في الاستيطان العامل ٠ مقابل ٥٠ طالبا عربيا في المدارس المذكورة ؛

(٣) تمد الحكومة الاسرائيلية الزراعة اليهودية بالقروض وتدعمها بالاعتمادات السخية ، مقابل لا شيء للزراعة العربية ؛

(٤) ارغام المزارع العربي على زراعة النباتات المرهقة والشحيحة الثمن ٠

وظلت المؤسسات الاحتكارية الاسرائيلية تشتري المنتجات الزراعية بسعرين مختلفين من اليهود ومن العرب ٠ ففي عام ٦٢ ـ ١٩٦٣ كان طن الدخان المنتج في المزارع العربية يباع بسعر ١٩٧٧ ليرة ، في حين وصل الطن من المزارع اليهودي في السنة نفسها الى ٢٢٢٥ ليرة ٠ ووصل الزيت العربي الى ٥٩٨ ليرة في حين بلغ سعر الزيت اليهودي ٨٨٢ ليرة للطن ٠ وكانت نتيجة كل تلك العراقيل والقيود ان اصبح دونم الارض في القرية العربية

ينتج ، عام ١٩٦٥ ، ٦٠ كيلوغرام من القمح مقابل ١٥٥ كيلو غرام للدونم في الاراضي اليهودية ، والشعير ٢٥ كيلو مقابل ٩٠ كيلو في المزارع اليهودية ، والبرسيم ٢٢٠ مقابل ١٫٦٥٠ ، وبنجر السكر ١٫٩٧٠ مقابل ٥٫٢٠٠ ! (٧٢) ٠

ومع ذلك فقد تمكن بعض المزارعين العرب من ادخال الآلات الزراعية في اراضيهم ، وقفز عدد الجرارات لدى العرب في اسرائيل ، من ٤٥ قبل عام ١٩٤٨ الى ٢٠٠ عام ٥٨ ـ ٥٩ ٠ واصبحت مساحة الارض العربية المزروعة خضرا تمثل ٢٥٪ من مجموع الارض المنتجة للخضر في اسرائيل عام ٦٣ ـ ١٩٦٤ (٧٣) ٠ ومعروف ان الخضر زراعة رأسمالية كثيفة ، تحتاج الى استثمارات كبيرة نسبيا ، من المال واليد العاملة والاسمدة ٠ واذا كان بعض اغنياء الريف العربي قد نجحوا في تنمية ثرواتهم ، فان الاغلبية الساحقة من فلاحي عرب اسرائيل لم تظل فقيرة فحسب ، بل تدنى مركزها الاجتماعي اكثر من ذي قبل ٠ وكان اكثر من ٥٠٪ بقليل من المزارعين العرب في اسرائيل (فيما عدا البدو) يعيشون على مزارعهم ، في حين كان الباقون يعتمدون على العمل بالاجر ٠ وفي تموز (يوليو) ١٩٦٣ أصدرت حكومة اسرائيل كتابا احصائيا عن اوضاع القرية العربية في اسرائيل ، وكان ميدان البحث ١٠٤ قرى عربية ٠ وقد أوضح هذا الكتاب ان الاراضي التي في حيازة القرى العربية هي ملك ١٤٫٣٤٠ أسرة ، ٢٨٫٧٪ من هؤلاء تزيد ملكيتهم عن ٣٠ دونم ، و ٧١٫٨ ٪ تتراوح ملكيتهم بين دونم واحد و ٣٠ دونم ٠ وبين البحث المذكور انه بحيازة القرى العربية ، في سنة ١٩٦٣ ، ٣٨٦٫٠٠٠ دونم من الاراضي الزراعية و ٤١٣٫١٤٦ دونم غير صالحة للزراعة (٧٤) ٠

ويدل الجدول التالي على مدى عمق التمايز الاجتماعي في الريف العربي باسرائيل (٧٥) :

تقسيم المزارع العربية في اسرائيل طبقا للحجم (عام ١٩٦١)

الحجم	العدد	٪	المساحة (بالدونم)	٪
٠ ـ ١٩	٥٤٣٢	٤٤ر٥	٤٣ر٥٠٩	٨ر١
٢٠ ـ ٤٩	٣٢٦٢	٢٧ر٢	١٠٤ر٨٧٧	١٩ر٧
٥٠ ـ ٧٤	١٢٩٩	١٠ر٨	٨٧ر٨٢٥	١٤ر٨
٧٥ ـ ٩٩	٧٦٠	٦ر٣	٦٥ر٢٠٧	١٢ر٢
اكثر من ١٠٠	١٣٤٦	١١ر٢	٢٤١ر٤٣٣	٤٥ر٢
المجموع	١٢٠١٠	١٠٠	٥٣٣٨٤١	١٠٠

ويبين هذا الجدول ان ٢ر١١٪ من الحيازات تمثل ٤٥ ٪ من الارض الزراعية العربية ، وهي الحيازات الكبيرة نسبيا ، أما فئات الارض ـ أقل من ٢٠ دونم ـ فهي تمثل نحو نصف الحيازات ، ولا تزيد مساحتها كلها على ٨ ٪ من جملة المساحة ٠ ويؤكد هذا الوضع عملية التمايز الطبقي التي تجري في المجتمع العربي في اسرائيل ، وهكذا يقع الفلاح العربي الصغير في اسرائيل تحت ظروف اقتصادية قاسية ، تنزل بدخله الى ما لا يزيد عن ٥٢٪ من دخل المزارع اليهودي الذي يساويه في الملكية(٧٦) ٠

وقد ترتب على هذه التحولات في اوضاع العرب الاقتصادية أن اخذت الهياكل الاجتماعية العشائرية القديمة في التفكك ، بفعل الانتقال المتزايد الى الاقتصاد السلعي ، والتمايز الطبقي بين الطبقات الريفية العربية المعدمة وبين الشريحة العليا من الطبقة

المتوسطة العربية ذات الطابع البورجوازي ، وقـد ساعد خروج العائلات المالكة العربية عام ١٩٤٨ من فلسطين على زيادة هـذا التفكك(٧٧) ٠

★ ★

لقد بات مستحيلا الان على المسؤولين الاسرائيليين ان يزعموا عدم اضطهادهم للعرب في اسرائيل ، اقتصاديا واجتماعيا وقوميا وسياسيا ٠

ففي ختام السنوات العشر الاولى لقيام اسرائيل ، كان مـا يقرب من ٨٥٪ من عرب اسرائيل تحت الحكم العسكري ، والـذي يتضمن(٧٨) :

أ ـ للحاكم العسكري أن يحظر على أي عربي التواجد فـي مناطق معينة ، ويضع أي شخص تحت رقابة البوليس ، ويرحله من مكان اقامته الدائمة ، ويعتقله اعتقالا اداريا ، ويفرض حظر التجول على قرى بأكملها ؛

ب ـ حظر خروج العرب من حدود المـدينة أو القرية التي يقيمون فيها ، الا بترخيص خاص ، يصعب الحصول عليه ٠

جـ ـ وضع الشؤون الحيوية للاهالي العرب في يد الوجهاء العرب الموالين للحكم الاسرائيلي ؛

د ـ اعلان مناطق معينة ، مناطق لتدريب الجيش الاسرائيلي يتحتم على أهلها العرب اخلاءها ، وغالبا ما يعلن ذلك في أوقـات الحصاد بالذات ٠

وفي عام ١٩٥٩ ، أقر الكنيست الاسرائيلي مشروعا باجراء تخفيف طفيف على اجراءات الحكم العسكري على العرب ٠ وفي

تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٣ ، جرت تسهيلات أخرى ، وفي الشهر الذي تلاه أصبح من حق العرب التجول في اسرائيل دون الحاجة الى تصريح ، واستثني من هذا الحق أهالي خمس قرى عربية قريبة من الحدود ، وبدو النقب ، ونحو ألف شخص ممن اعتبرتهم الحكومة الاسرائيلية خطرين على أمن الدولة (٧٩) ٠

وقد حال الحكم العسكري دون انشاء هيئات الحكم المحلي في المناطق العربية ، وعندما سمح للعرب بانتخاب هيئات حكم محلي، عام ١٩٥٤ ، في بعض قراهم ، حال الحكم العسكـــري دون تطور هذه الهيئات ؛ بتدخـله في كل كبيرة وصغيرة ، وبفرضه المندوبين والاعضاء الذين يريدهم في هذه الهيئات ٠ وفي نيسان (ابريل) ١٩٥٨ ، كانت ٣٠ قرية عربية من مجموع ١٠٥ ، تنتمي بصورة او بأخرى لاطار الحكم المحلي ٠ وفي الوقت الذي اعتمدت الحكومة الاسرائيلية للمجالس المحلية في اسرائيل ، للسنة المالية ٥٧ ـ ١٩٥٨ ، ميزانية قدرها ١٣٩ مليون ليرة اسرائيلية ، لـم يخصص المجالس المحلية العربية الا بـ ١٪ منها، اي ١ر٣٨ مليون ليرة ٠ وفي السنة التالية كان تحت تصرف وزارة الداخلية الاسرائيلية اكثـر من ١٤ مليون ليرة اسرائيلية ، للصرف منها على المجالس المحلية، رصد منها لتسعة عشر مجلس محلي عربي مبلغ ٠٠٠ر٣٦٥ ليرة ، لاعمال التنمية المختلفة ، بواقع ٥ر٢ ٪ من جملة المبلغ المرصود لهذا الغرض (٨٠) ٠

وباختصار ، يعامل العرب في اسرائيل باعتبارهم رعايا من الدرجة الثالثة ٠ ففي جرائم متماثلة ، يحاكم اليهود امام محكمة مدنية عادية ، في حين يقدم العرب الى المحاكم العسكرية ٠ وكما نعرف فان فرص المتهم للدفاع عن نفسه أو الطعن في الحكم أمـام المحكمة العسكرية محدودة ، ونجد ان المواطن العربي لا زال مركزه الادبي مستباحا ؛ فهو لا زال عرضة لاهدار كرامته ٠ وفي معرض الاسلحة الذي نظمته الحكومة الاسرائيلية في حيفا عام ١٩٥٧ ،

وضعت دمى على هيئة اشخاص عرب اهدافا للمتسابقين في ضرب النار · ويقول كاتب اسرائيلي انه في السنوات الاخيرة « كنا نشاهد شرطيا يوقف اوتوبيسا في طريق رئيسي ويقول بصوت آمر : على جميع العرب ان يبرزوا بطاقات الهوية » · وقد عرضت للبيع في محلات لعب الاطفال ، دمى خشبية تمثل عرب مشنوقين · وظل الحرف «ب» في بطاقة الهوية للرعايا العرب يذكرنا بحرف آخر كان يطبع في بطاقة هوية اليهود في دول معينة · وعندما تقدم للهيئة الحكومية الفلانية مذكرة وخطابا بالعربية ، كان المتقدمون ينصحون بأن يرفقوها بترجمة عبرية للمسارعة بقضاء المسألة · وكان لرفض بن غوريون – رئيس الوزراء – قبول بطاقة هوية جديدة ، طبعتها وزارة الداخلية ، بالعبرية والعربية – كما نشرت الصحف ، مغزى بارزا في هذا الصدد · ومن الجدير بالذكر ان جنسية البلاد يستطيع الحصول عليها – بصورة اوتوماتيكية – اي يهودي يصل الى اسرائيل ، أما العربي الذي ولد في البلاد وعاش فيها كل أيامه ، فانه مطالب بان يثبت – بالشهادات والوثائق والادلة – حقه في الحصول عليها (٨١) ·

ويحتل العرب المواقع الدنيا في الهرم الطبقي باسرائيل · فنصيب العائلين العرب في الطبقات ذات الدخل الكبير ، واصحاب المرتبات الكبيرة ، ضئيل جدا · فبالرغم من أن نسبتهم في مجالات الصناعات الصغيرة والورش والبناء تعادل نسبة العائلين اليهود ، الا أنهم يحصلون على مدخول أقل · وحتى منتصف عام ١٩٦٠ لم يكن في اسرائيل بنك عربي واحد · ومعظم التجار العرب هم من صغار التجار · في حين يشغل العرب أعمال على هامش الانتاج ، مثل الباعة المتجولين ، والحمالين ، والسائقين ، والحوذية · ويكاد لا يكون للعرب وجود في الاعمال التجارية الكبرى ، وفي اعمال التصدير والاستيراد · كما ان نصيبهم في مجال الخدمات ضئيل ، ولا يكاد يذكر (٨٢) ·

والاقلية العربية محرومة – بعد كل هذا – من فرص التعليم الكافي · ففي حين ان حوالي ٩٤٪ من الاطفال اليهود يذهبون الى رياض الاطفال والمدرسة الابتدائية ، فان هذه النسبة تهبط عند العرب في اسرائيل الى ما بين ٤٤ – ٦١٪ (٨٣) · وما يقارب من ٣٪ فقط من العرب الحاصلين على الشهادة الابتدائية ينتقلون الى التعليم الثانوي أو بعده ، أما الجامعة والمعاهد العليا ، فعدد الطلبة العرب فيها لا يزيد على ٣٥٠ طالبا فقط · وقد وصل عدد الطلبة العرب في الجامعة العبرية بالقدس – عام ١٩٥٩ – الى ٩٤ طالبا منهم ثلاث فتيات (٨٤) ·

ويلاحظ ان تعليم التوراة الزامي في المدارس الثانوية العربية في حين ان الديانتين المسيحية والاسلامية لا تدرسان فيها مطلقا ؛ كما يحرم تدريس بعض السور القرآنية في المدارس الابتدائية ، وخاصة تلك التي تحث على الجهاد ضد الذين قاتلوا المسلمين في دينهم الخ ·

وسياسة التمييز التي تمارسها الدوائر الحاكمة تشمل جميع الميادين : منها المرافق العامة ، اذ ان اغلب القرى العربية تفتقر – حتى اليوم – الى الماء الصالح للشرب والكهرباء والطرق المهدة · كذلك نجد أن العديد من المناطق العربية ليست فيها خدمات طبية ·

وبعد استيلاء اسرائيل على قطاع غزة والضفة الغربية والمرتفعات السورية وسيناء ، سارت الحكومة الاسرائيلة على منهجين في وقت واحد ازاء الفلسطينيين العرب ؛ أحدهما هو الارهاب عن طريق الاعتقال والسجن وحظر التجول ونسف البيوت الخ ··· والثاني هو الاستيعاب الاقتصادي ؛ بتحويل المناطق العربية الى مصدر لليد العاملة الرخيصة والمنتجات الزراعية المنخفضة الاسعار ، والى سوق تستورد المنتجات الاسرائيلية ·

وكلا المنهجين استعماري وتوسعي يستهدف جعل تلك المناطق أراض تابعة ٠

أما من الناحية السياسية ، فالبحث جار عن حل «مناسب » ٠ غير ان كلا المنهجين لا بد من ان يؤدي ـ في الوقت نفسه ـ الى تزايد المقاومة العربية وتصعيد نضالها ٠

وبعد ، هذه هي الاحـــوال الاجتماعية للتجمعات الرئيسية للفلسطينيين في أعقاب النكبة ، وما تبقى بعد ذلك من تجمعات في سوريا ولبنان والعراق والجزيـــرة العربية ، تكاد تتشابه في تكويناتها الاجتماعية مع بعضها البعض ، فالفلسطينيون هنـاك لا يمتلكون اراض، واغلبهم يعمل فيالوظائف الرسمية أو المهن الحرة٠ ويمكن القول ان الفلسطينيين ـ بصفة عامـــة ـ أمسوا ، بعد النكبة، يشكلون مجموعة غير متجانسة من حيث التكوين الاجتماعي، والمستوى الثقافي ، والاتجاهات السياسية ٠ فالذين ظلوا في الضفة الغربية ، او الذين انتقلوا الى الضفة الشرقية للاردن كانوا يمثلون اكثر العناصر راديكالية واشدها تقدمية فـــي المملكة الاردنية الهاشمية ، وغالبيتهم تعارض السياسة الرسمية الموالية للامبريالية وبقي اللاجئون المكدسون في المخيمات يجترون مرارتهم ويجأرون بمطالبهم من وقت لآخر ، في حين تمكن زملاؤهم الاكثر مهارة وحظا منايجاد اعمال لهم ٠ وشكلوا ـ في بلدان مختلفة ـ نواة تميزت بسلوك نخبة تمثل اقلية ، وحقق بعضهم ثراء ملحوظا ، وظهر بينهم المفكرون والمناضلون السياسيون والنقابيون ٠ وان ظلت المخيمات أسيرة النظام القديم ، شبه العشائري ، وبقي للاعيان سطوة على تلك المخيمات لمدة طويلة(٨٠) ٠

هـوامش

(١) وافقت عـــلى مشروع التقسيم كـــل من استراليـــا ، واورغواي ، واكوادور ، وايسلندا ، وجنـــوب افريقيا ، واوكرانيـــا ، والولايات المتحدة ، وبوليفيا ، وروسيا البيضاء ، وبلجيكا ، والبرازيل ، والاتحاد السوفياتي ، وجواتيمالا ، والدانمرك ، وهايتي ، وهولندا ، والفليبين ، والدومنيكان ، وفنزويـــلا ، ولوكسمبورغ ، وليبيريـــا ، والنرويـــج ، ونيوزلندا ، ونيكارغوا ، وبرغواي ، وبولندا ، وبيرو ، وتشيكوسلوفاكيا وفرنسا ، وكندا ، وكوستاريكا ، والسويد .

في حين عارضته كل من أفغانستان ، والهند ، واليونان ، ولبنان ، ومصر ، وسوريا ، والعراق ، والسعودية ، وباكستان ، وايران ، وكوبا ، وتركيا ، واليمن .

وامتنعت عن التصويت كل من الارجنتين ، وبريطانيا ، وهندوراس ، والحبشة ، ويوغسلافيا ، والمكسيك ، وسلفادور ، والصين ، (شانج كاي شيك) ، وشيلي ، وكولمبيا .

(٢) لمزيد من التفاصيل (راجع : عبد القادر ياسين : لماذا وافق الاتحـــاد السوفياتي على تقسيم فلسطين ؟! العدد ٥١ ، من شؤون فلسطينية ، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٥ .

وتخلفت دولة واحدة عن الاقتراع ، هي : سيام .

(٣) DAVID HOROWITZ ; State in Making, translated from the Hebrow by Julian Melian, New York, Alfred A. Knopf, 1953, P. 259. and Little Shultz; The Palestine Fight-an Inside story, Nation Vol. 165 (December 20,1947), P. 7.

(٤) الدفاع ، العدد ٣٨٦٧ ، ٢٧ ـ ١ ـ ١٩٤٨ .

(٥) الدفاع ، العدد ٣٩٠٣ ، ٩ ـ ٣ ـ ١٩٤٨ .

(٦) الدفاع ، العدد ٣٩٢٥ ، ٤ ـ ٤ ـ ١٩٤٨ ٠

(٧) فلاديسلاف غومولكا : حول العدوان الاسرائيلي على الامة العربية ٠ المؤتمر السادس للنقابات البولونية ، فرصوفيا ، ١٩ ـ ٢٧ ـ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، ص ٨ ٠

ومن المعروف ان قرار التقسيم الذي أصدرته الامم المتحدة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ خص الدولة العربية بـ ١١ر٠٠٠ كم٢ والدولة اليهودية بـ ١٤ر٠٠٠ كم٢ ٠

(٨) Dr. John H. Davis : The evasive pease, London, John Murray, 1968, P. 44.

(٩) اهرون كوهين : اسرائيل والعالم العربي ، الجـزء الثالث ، ترجم بمعرفة المخابرات العامة ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٨٦٩ ٠

(١٠) انجلينا الحلو : اسرائيل والسوق الاوروبية المشتركة ٠ مركز الابحاث الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٢٠ ٠

(١١) Le Monde: 23. 2. 1972.

(١٢) Judge G. SPARROW: «Modern Jordan», London-George Allen and Unuin, 1961, P. 99.

(١٣) J. H. Davis; op. cit., P. 54.

(١٤) كوهين : مصدر سبق ذكره ، ص ٨٧٢ ـ ٨٧٣ ٠

(١٥) المصدر نفسه ، ص ٨٧٠ ـ ٨٧١ ٠

(١٦) خالد ابو خالد : عدو قوي ولكنه ليس اسطوريا ٠ الطليعة (القاهرية)، العدد السادس ، السنة الخامسة ، حزيران (يونيو) ١٩٦٩ ، ص ٣٠ ٠ (النسبة المئوية محسوبة بمعرفتنا) ٠

(١٧) أميرة حبيبي : النزوح الثاني ٠ دراسات فلسطينية ، رقم ٧٥ ، مركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ١٢٣ وما بعـدها ٠

(*) اللاجىء الجديد هو الذي ترك البلاد بعـــد الاحتلال الاسرائيلي عام ١٩٦٧ ، اما اللاجىء القديم فهو الذي تركها منذ عام ١٩٤٨ ٠

(١٨) أميرة حبيبي : مصدر سبق ذكره ، ص ٤٥ و ٧٥ و ٨٧ و ١٠٦ ٠

(١٩) المصدر نفسه ، ص ١٤٣ ، ١٤٥ ، ٢٠٦ ـ ٢٠٨ ٠

(٢٠) M. HUDSON; The Palestinian Arab Resistance. The Middle East Journal, Vol. 23, No. 3-Summer 1969, P. 292 .

(٢١ د٠ ادوارد سيدهم : مشكلة اللاجئين العرب ٠ الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣ ٠ ص ٩٥

(٢٢) J. BASTER; Economic Problems In The Gara Strip. The Middle East Journd, Vol. 9,No.3, Summer 1955, P. 328.

(٢٣) محمد علي خلوصي : التنمية الاقتصادية فـــي قطاع غزة ١٩٤٨ ـ ١٩٦٦ ٠ المطبعة التجارية المتحدة ، القاهـــرة ، ١٩٦٧ ، ص ٧٧ ٠ (النسب محسوبة بمعرفتنا) ٠

(٢٤) المصدر نفسه ، ص ٣٣٦ ٠

(٢٥) المصدر نفسه ، ص ٦٢ ـ ٦٤ ٠

(٢٦) المصدر نفسه ، ص ١٣٦ ٠

(٢٧) J. BASTER; op. Cit., P. 56.

(٢٨) خلوصي : مصدر سبق ذكره ، ص ٦٥ ٠

(٢٩) G. S. SPARROW; op. Cit., P. 165.

(٣٠) الامم المتحدة : دراسات عن بعض المشاكل الانمائية في بعض البلدان المختلفة بالشرق الاوسط ٠ نيويورك ، ١٩٦٩ ٠

(٣١) The Middle East Economic Digest ; Vol. 15, No. 24, 11. 6. 1971 P. 648.

(٣٢) و (٣٣) الحزب الشيوعي الاردني : الجـذور الاقتصادية للانتهازية اليمينية في مواقف الزمرة المنشقة عن الحزب الشيوعي الاردني ٠ الطبعة الثانية ، آب (اغسطس) ١٩٧١ ، ص ١٩ ـ ٢٠ ٠

(٣٤) U.N.O. S.Y.B. - 1952: - Tables 132, 135, 1971; Tables 147 - 148.

(٣٥) عبد العال الباقوري : ملامح الخريطة الطبقية في الاردن ٠ الطليعة (القاهرية) ، العدد الرابع السنة الثامنة ، نيسان (ابريـل) ١٩٧٢ ، ص ٣٨ ٠

(٣٦) سالم خليل : الارض التي تناضل مـــن أجلها ٠ قضايا السلم والاشتراكية (الطبعة العربية) العدد السادس ، السنـــة السادسة عشرة ، حزيران (يونيو) ١٩٧٣ ، ص ٤٣ ٠

(٣٧) M.E.E.D. : Vol. 15, No. 30 - 23. 7. 71 - P. 843.

(٣٨) سالم خليل : مصدر سبق ذكره ، ص ٤٣ ٠

(٣٩) الامم المتحدة : مصدر سبق ذكره ، ص ٣٧ ٠

(٤٠) المصدر نفسه ، ص ٣٧ ٠

(٤١) U. N. D. S. Y. B. - 1963: Table 73 ; 1971: Table 77.

(٤٢) M. E. E. D. - Ditto - P. 824.

(٤٣) سالم خليل : مصدر سبق ذكره ، ص ٤٢ ٠

(٤٤) المصدر نفسه ، ص٤٤ ٠

(٤٥) المصدر نفسه ، ص ٤٢ ـ ٤٣ ٠

(٤٦ الباقوري : مصدر سبق ذكره ، ص ٣٩ ٠

(٤٧) G. Sparrow ; 0p. Cit., P. 25.

(٤٨) سالم خليل ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٣ ـ ٤٤ ٠

(٤٩) المصدر نفسه ، ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(٥٠) I.L.O. : Ditto, P.P. 94 - 95.

(٥١) I.L.O. : Ditto, P.P. 94 - 95.

(٥٢) I.L.O.: Ditto, P.P. 94 - 95.

(٥٣) I.L.O.: Y.B.L.S. - 1971 - P. 337.

(٥٤) U.N.O.: S.Y.B. - 1951: Tables 172, 175, 178.
1971: Tables 204, 211, 214.

(٥٦) النسبة المئوية بمعرفتنا
M.E.E.D.: Vol. 15, No. 30 - 23. 7. 71, P. 844.

(٥٦) النسبة المئوية بمعرفتنا .
U.N.O.: S.Y.B. - 1971 - Table 194

(٥٧) M.E.E.D.: Ditto - P. 845.

(٥٨) سالم خليل : مصدر سبق ذكره ، ص ٤٤ .

(٥٩) المصدر نفسه ، ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(٦٠) كوهين : مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٩٢٢ .

(٦١) الياس سعد : اسرائيل والبطالة ، مركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٣٥ .

(٦٢) المصدر نفسه ، ص ٩٦ .

(٦٣) سعد ، المصدر نفسه ، ص ٩٢ .

(٦٤) صبري جريس : العرب في اسرائيل ، الجـــزء الثاني ، دراسات فلسطينية ، رقم ٢١ ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مـركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ١٥٠ .

(٦٥) الياس سعد : مصدر سبق ذكره ، ص ٩٨ ٠

(٦٦) T. Goznaski - op. Cit., P. 32.

(٦٧) M. Vilner : le 16*em*. Congrés du P.C.I., Nouvelle Revue International - No. 5 - Mai 1969 - P. 137. Also: T. Gonznaski - Ditto.

(*) بلغ حجم الاراضي المذكورة نحو ٣ر٢٥٠ر٠٠٠ دونم (كوهين ، مصدر سبق ذكره ، ص ٩٣٥) ٠

(**) يقول أهرون كوهين ، أنه « لم يبق في حوزة العرب في اسرائيل الا ٣٠ ـ ٤٠٪ من الاراضي التي كانت في حوزتهم قبـــل قيام الدولة » (كوهين مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٩٤٨) ٠

(٦٨) أهرون كوهين : مصدر سبق ذكره ، ص ٩٤٥ ـ ٩٤٦ ٠

(٦٩) نيكتينا : مصدر سبق ذكره ، ص ٢٠٨ ٠ وكوهين ، مصدر سبق ذكره ص ٩٤٩ ، ٩٥١ ـ ٩٥٢ ٠

(٧٠) صبري جريس : مصدر سبق ذكره ، ص ١٤١ ٠

(٧١) كوهين : مصدر سبق ذكره ص ٩٥٣ ـ ٩٥٤ ٠

(٧٢) M. Salha: Agricullure in Israel (In Y. SHIBL ed.) op. Cit., P. 113.

وأهرون كوهين : مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٩٤٧ ٠

(٧٣) W. Current - Garcia: The Arabs in Israel (In Y. Shibl ed.) Ditto., P., 88.

(٧٤) كوهين : مصدر سبق ذكره ، ص ٩٥٧ ـ ٩٦٠ ٠

(٧٥) W. Current - Garcia - Ditto, P. 84. Nathan Weinstock: Le Soinisme Contne Israel, Maspéro, Paris, P. 388.

(٧٦) من أرقام ذكرها فاينشتوك

(٧٧) أميرة حبيبي ، مصدر سبق ذكره ، ص ١١٦ .

(٧٨) كوهين : مصدر سبق ذكره ، ص ٩٢٤ ـ ٩٢٥ .

(٧٩) المصدر نفسه ، ص ٩٣١ ـ ٩٣٢ .

(٨٠) المصدر نفسه ، ص ٩٣٣ ـ ٩٣٥ .

(٨١) المصدر نفسه ، ص ٩٣٩ ـ ٩٤٢ .

(٨٢) المصدر نفسه ، ص ٩٤٣ ـ ٩٤٥ .

(٨٣) صبري جريس ، المصدر المذكور ، ص ١١٦ .

(٨٤) كوهين ، مصدر سبق ذكره ، ص ٩٢٢ .

(٨٥) مكسيم رودنسون ، اسرائيل والرفض العربي ، وزارة الاعلام ، هيئة الاستعلامات ، القاهرة ، كتب مترجمة ٧٠٢ ، د٠ ت٠ ، ص ٨٩ .

الفصل الثاني

الجذور التاريخية للمقاومة

لم تكن الحركة الوطنية الفلسطينية – في اعقاب النكبة – تواجه استعمارا شائخا (مثل ذلك الذي واجهته الحركتين المصرية والسورية) ، بل فتيا تسنده الطليعة الجديدة للمعسكر الاستعماري العالمي · ولذلك كانت المواجهة بينهما اشد حدة واعمق تأثيرا ، فكشفت بسرعة اكبر عن ضعف القيادات العربية الفلسطينية القديمة، وعن حقيقة القوى الكامنة في الاوساط الشعبية الفلسطينية ، كما انضجت الحركة الوطنية الفلسطينية بصورة اشمل ، مما جذب اليها عواطف الشعوب العربية وآمالها في حماس عظيم ·

غير ان الحركة الوطنية الفلسطينية مرت بظروف خاصة بها ، اضفت عليها سماتها المميزة عن سائر الحركات الوطنية العربية في المنطقة : اولاها – ولا شك – ان هزيمة عام ١٩٤٨ اقترنت ليس فقط بالهجرة الكتلية للاجئين من اراضيهم ، بل بالانهيار المفاجيء والتام لقيادتها شبه الاقطاعية والعشائرية ، ولم يبق منها سوى عناصر محدودة « محنطة » – مثل « حكومة عموم فلسطين » ، التي سرعان ما ذبلت وذرتها الرياح ·

والسمة الثانية ، ان الشعب الفلسطيني – وحركته الوطنيـــة بالتالي – بات مقسما الى اربعـــة اجزاء رئيسية ، بينها حواجز اقليمية وسياسية : اسرائيل ، الاردن ، قطاع غزة ، وسوريا ولبنان · وقد ادى هذا التشتيت الى اضعاف الحركة الوطنية الفلسطينية لمدة طويلة ، كما اعاق تكوين قيادة جديدة على نطاق الشعب كله ·

ثم ان الحركة الوطنية الفلسطينية ظلت تعلق املهـا الاساسي على الانظمة العربية ، التي اتخذت اغلبها – وفي اكثر الاوقات – موقفا مزدوجا من الحركة المذكورة : فهذه الانظمة لا تستطيع الا ان تعلن تمسكها اللفظي بالحق العربي ، اما عن تقدير صحيح للخطر الصهيوني والاستعماري ، واما خوفا من ان ينقلب عليها شعبها ، وقد يكون للامرين معا · ومن جهة اخرى فان هذه الانظمة ترى في القضية الفلسطينية عقبة كبرى ، تحول دون اعادة الود المنشود مع الامبريالية ، وعامل تثوير اضافي للجماهير الشعبية العربية التي تمر بتحولات جذرية · وعليه كان خط اغلب الدول العربية خطـــا مزدوجا : محو معالم الحركة الوطنية الفلسطينية وحقوقها وحركتها من جهة ، واحتواء ما تبقى منها بعد ذلك من جهة اخرى ·

ولذلك نجد اختلافا زمنيا بين الحركة الوطنية الفلسطينية وبين الحركة في بقية الاقطار العربية في المراحل التي تلت النكبة ، على نقيض ما حدث قبلها · ففي حين ان الفترة بين ١٩٤٨–١٩٦٤ تميزت بالمد والنشاط الجماهيري وأفول قيادة البورجوازية الوطنيـــة ثم صعود قيادة البورجوازية الصغيرة وانتصاراتها على نطاق البلدان العربية الرئيسية في المنطقة ، نرى ان الفترة نفسها كانت مـرحلة خفوت وجزر للنشاط الفلسطيني المتميز ، وظهور قيادة البورجوازية الوطنية متأخرة ، ولفترة قصيرة ، في الاردن (وزارة النابلسي) · وكذلك نلاحظ – بشكل عام – عودة الذاتية الفلسطينية وظهور قيادة البورجوازية الصغيرة في هذا الميدان بعد ان بدأ تطور الاحداث

يعري سلبيات قيادة تلك الطبقة في البلدان العربية ، اي بعد عام ١٩٦٥ ٠

الا ان اختلاف المسالك بين الحركة الوطنية الفلسطينية وبين الحركات الوطنية العربية الاخرى لم يحل دون ان يدفع بها التاريخ، جميعا ، نحو مصب مشترك، اي ان تلعب الجماهير الكادحة والمعدمة من العمال وفقراء الفلاحين والحرفيين دورا اكثر بروزا ٠ وقد كانت الاحزاب الشيوعية العربية عنصرا طليعيا فعالا في انضاج التحولات الطبيعية ، رغم ما وقع فيه بعضها من اخطاء بين الحين والاخر ، كما ان الاوضاع الدولية الجديدة – والتي اصبحت القوى الاشتراكية تلعب فيها الدور الحاسم – احاطت المنطقة العربية كلها، وبلورت فيها تيارات لم تكن من قبل تتعدى المرحلة الجنينية ٠

ولقد اتصفت اغلب القيادات الوطنية العربية – البورجوازية والبورجوازية الصغيرة – بخط معاداة الشيوعية حتى عام ١٩٧١ تقريبا ٠ غير ان هذا الخط جر معه العجز تلو الهزيمة فكان فشله على المستويين الوطني والاجتماعي من الاسباب التي ساعدت على انضاج الحركة الوطنية الفلسطينية ، ودخولها مرحلة جديدة ٠

١ – تحت الرماد جمر (١٩٤٩–١٩٦٣) :

لم تستخلص القيادة القديمة للحركة الوطنية الفلسطينية الدروس السياسية من هزيمتها ٠ والحقيقة ان طبيعتها نصف الاقطاعية – نصف البورجوازية ، وبعدها عن الشعب ، وايمانها بالمفهوم المطلق للقومية العربية – اي بصرف النظر عن اجنحتها الرجعية – كل ذلك جعلها عاجزة عن التفهم العلمي لاسباب تلك الهزيمة ٠ واليكم مثال في موسى العلمي ، الذي كتب ما اسماه بـ « عبرة فلسطين » فقال : «لقد كان المصدر الاساسي لضعفنا ، في

المرحلة الاولى ، اننا لم نكن مستعدين ، رغم اننا لم نفاجأ ... واننا سرنا على دروب الثورات السابقة ... واننا عملنا على اساس محلي دون شمول ودون قيادة عامة ... كانت اسلحتنا ضعيفة وغير فعالة ... واهدافنا من المعركة مختلفة . وكانت هذه السلبيات ـ ايضا ـ مصدر ضعف دفاعنا في المرحلة الثانية ... والعلاج الرئيسي هو في وحدتنا ، حتى نصبح مرة اخرى كيانا سياسيا قويا ... وهنا يقدم الهلال الخصيب امكانيات كبيرة . فلنكن مقتنعين بالوحدة الاقليمية ، التي سوف تجمع بلاد هذا الهلال، ويمكن ان تصبح نموذجا للوحدة العامة » (١) .

فملاذ موسى العلمي من الصهيونية كان في الهلال الخصيب ؛ اي في العائلتين الهاشميتين بالعراق وشرق الاردن في ذلك الوقت، وبالتالي في الاستعمار الاجنبي الذي كان المسيطر الحقيقي على البلدين المذكورين .

اما المصدر الاساسي لهزيمة الحركة الوطنية الفلسطينية ـ في حقيقة الامر ـ فقد كمن في ثقتها بالانظمة العربية التي احاطت بفلسطين عام ١٩٤٨ . وهي الانظمة التي لم تدخل الحرب ضد اسرائيل الا خدمة للاستعمار البريطاني اساسا ، وحتى تتمكن من امتصاص الموجة الثورية المتعالية في ذلك الوقت فتجهضها هي والقضية الفلسطينية في وقت واحد . وقد اقرنت هذه الانظمة ادعاءها بانقاذ فلسطين بالشعارات المتعصبة ، الامر الذي ساعد على توحيد المستوطنين اليهود تحت راية الصهيونية في تل ابيب . وفي الوقت نفسه ، كانت القيادة الرسمية العربية تظهر ثقتها في حكومة واشنطن : ففي ٢٣ حزيران (يونيو) ١٩٤٨ ، دعا جمال الحسيني ـ نائب رئيس الهيئة العربية العليا ـ الامريكان الى تأييد الدولة الفلسطينية الموحدة ! وفي السابع من ايلول (سبتمبر) وافق عبد الرحمن عزام باشا ، الامين العام للجامعة العربية ، على مبدأ

توطين اللاجئين الفلسطينيين في البلاد العربية ·

ولم يمنع وقوع النكبة الشعب الفلسطيني من مواصلة الكفاح، بشكليه السياسي والمسلح · وان اتسم كفاحه هنا بالعفوية والتقطع، وافتقر للتنظيم والاستمرار · وقـــد اقلق استمرار الكفـــاح هذا المسؤولين الاسرائيليين واقض مضاجعهم ، وهذه غولدا مائيـــر – رئيسة وزراء اسرائيل من اذار (مارس) ١٩٦٩ الى حزيران (يونيو) ١٩٧٤ – تقول في حديث صحفي لها : « اننا لم نعرف السلام على حدودنا جميعا،باستثناء حدودنا مع لبنان،وكان هناك الفدائيون»(٢). وطبقا لاحصائيات وزارة الخارجية الاسرائيلية ، فان ٧٫٨٥٠ من الحوادث التي وقعت على الحدود الاسرائيلية مع الدول العربية منذ اتفاقيات الهدنة،في النصف الاول من عام ١٩٤٩،وحتى وقوع العدوان الثلاثي على مصر في التاسع والعشرين من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٦ ، قام بها اشخاص قدموا من حدود المملكة الاردنية وحوالي ثلاثة الاف قام بها اشخاص اتوا من قطاع غزة والحدود المصرية ، وحوالي ستمائة حادث من سوريا ، وحوالي ٢٠٠ من لبنان (٣) ·

وفي عامي ٥٤ – ١٩٥٥ ، اصدرت المحكمة الاردنية احكامـــا مختلفة بالسجن على٩٩٧ فلسطينيا بتهمـــة « التسلل » الى وطنهم المحتل ! بالاضافة الى عدد كبير آخر من الاشخاص صدرت ضدهم احكام مختلفة مع ايقاف التنفيذ ، بعد ادانتهم بالتهمة نفسها، وطردت الحكومة الاردنية بعض «المخاتير » من مناصبهم عقابا لهـــم على امتناعهم عن التعاون معها والكشف عن « المتسللين » (٤) ·

ويلقي الجنرال جلوب الضوء على اسباب « التسلل » وتطوره حين يقول ان من حاول العودة الى بلاده – بعد توقيع اتفاقية الهدنة – من الفلسطينيين ، او حرث ارضه المواجهة للقوات الاسرائيلية ، كان نصيبه القتل برصاص الاسرائيليين ، مما دفع عرب فلسطين الى دخول بـــلادهم مسلحين ، للدفاع عـــن انفسهم عنـــد الاقتضاء ·

ويشير جلوب الى حوادث تسلل الاسرائيليين الى الضفة الغربية بغرض السرقة والقتل واثارة الذعر بين العرب المسالمين ، خاصة مع تدهور الحالة الاقتصادية في اسرائيل ، وندرة الموارد التموينية فيها · ورد عرب فلسطين على هذه الحوادث بالمثل · وسرعان ما اتسعت حوادث «التسلل» وانزعجت الحكومة الاردنية ، وحاولت منعها فعرضت على الامم المتحدة اقامة منطقة معزولة من السلاح بين الضفة الغربية واسرائيل· كما سنت قانونا بحظر دخول اسرائيل ، واقترحت الحكومة الاسرائيلية تشكيل دوريات اردنية ـ اسرائيلية مشتركة ، على طول الحدود بين الاردن واسرائيل ، لوضع حد لهذه «التسللات» · ويؤكد قائد الجيش الاردني ـ انذاك ـ ان حكومته كانت تبذل قصارى جهدها « لمنع المتسللين عبر الحدود » (٥) ·

ويفسر جلوب موقف الحكومة الاردنية من منع « التسلل » ، بأنها كانت تدرك ان حوادث « التسلل » هذه ما كانت لتؤثر على الامن الاسرائيلي ، وان الاسرائيليين يتذرعون بمثل هذه الحوادث لشن هجمات انتقامية ضد سكان الضفة الغربية وقوات الجيش هناك (٦) · وكأن الجيش الاردني قام بما يؤثر على الامن الاسرائيلي ، او ان الاسرائيليين بحاجة الى ذريعة لشن هجماتهم على العرب الامنين ، واخيرا ، او ليس من واجبات الجيش الاردني صد ودحر هذه الهجمات الاسرائيلية عند وقوعها ؟!

ولجأت الحكومة الاردنية الى سلاح جديد لوقف حوادث «التسلل» هذه ، اذ قررت اقامة « حرس وطني » من ابناء قرى المواجهة ، دون ان تدفع لهم رواتب، وزودتهم ببنادق تقليدية وحجزت عنهم الذخيرة في مقار المجالس البلدية ، ممثلة السلطة في القرى · وحصل عند هجوم الاسرائيليين على قرية « قبية » ، في الرابع عشر من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٣ ، ان سارع الجنود الاسرائيليون المهاجمون الى نسف مقر مجلس قبية على ما فيه من ذخائر ، ثم

انفردوا بالحـــرس الوطني الذي اضحى بـــلا ذخائر ، مما اتاح للاسرائيليين تنفيذ مذبحتهم بلا ادنى مقاومـــة · خاصة بعـد ان تجاهل القائد البريطاني للمنطقة طلب النجدة التي ارسلته القرية عند وقوع الهجوم عليها · ثم تطور « الحرس الوطني » واصبح له نظام خاص ، يحتم على كل اردني تأدية خدمة العلم (٧) ·

وواضح ان الحكومة الاردنية هدفت من وراء اقامة « الحرس الوطني » الى امتصاص نقمة الفلسطينيين ، وتدمير معنوياتهم ، واحتواء طاقاتهم ، مع تجنيب جيش الاردن خوض معارك مـــع الاسرائيليين ، لذا تراجـــع لجيش الاردني الى مـا وراء الخطوط الامامية التي شغلها الحرس الوطني (٨) · هذا عوضا عن ان تشكيل هذا الحرس اتى للجم رغبة الفلسطينيين الجامحة للقتال ضـــد مغتصبي بلادهم ·

ومع كل ذلك ، فالتسلل تطور · وفي صيف ١٩٥٣ ظهـر نوع اخر من « المتسللين » · فالتسلل بقصد السرقة توقف تقريبا، ليفسح مكانـه « لتسلل من اجـــل قتل الاسرائيليين بالرشاشات والقنابل اليدوية ، وثبت ان جميع هؤلاء «المتسللين» الجدد كانوا يستخدمون طريقة واحدة في هجومهم وانسحابهم ، مما يؤكد انتمائهم لجبهـــة واحدة ، وتلقيهم تدريبا عسكريا واحدا · واثبتت التحقيقات ان هؤلاء من الفلسطينيين المقيمين في سوريا ، الا ان اجراءات القمع الرسمية الاردنيـــة نجحت ، الى حد بعيد ، في الحـــد من هذه العمليات » (٩) ·

اما المسؤولون الاسرائيليون ، فما كان باستطاعتهم استنكار هذه العمليات امام الرأي العام في بلادهم · كما عجزوا ـ عمليا ـ عن وقف هذه العمليات (١٠) ·

وفي مجال تقييد الفلسطينيين ومحاولة تبديد سخطهم وطاقاتهم الثورية ، دخلت الدول العربيـــة في مفاوضات مـع امريكا لتنفيذ

مشروع « النقطة الرابعـــة » الامريكية ، وقبول المعونة الامريكية ، ولمنع تحول اللاجئين الفلسطينيين الى عنصر « هدام » اقتصاديا واجتماعيا ، فان برنامجا مشتركا للتنمية الاقتصادية سوف يحقق مصلحة الولايات المتحدة في التطور المنظم للشرق الاوسط (١١) !

وابرمت الولايات المتحدة الامريكية عددا من الاتفاقات مـــع بعض الانظمة العربية ، عام ١٩٥٣ ، لتوطين اللاجئين الفلسطينيين في مناطق من دول تلك الانظمة. فوقعت مع الحكومة المصرية اتفاقية لتوطين اللاجئين الموجودين في قطاع غزة بمنطقة شمال غرب سيناء ووقعت امريكا اتفاقية اخرى مع حكومة اديب الشيشكلي لتـوطين اللاجئين الفلسطينيين المقيمين في سوريا بمنطقة الجزيرة السورية. كما وقعت اتفاقا ثالثا مع الحكومة الاردنية لتوطين لاجيئها في وادي الاردن (مشروع جونستون) . وان كـــان اصرار وكفاح الشعب الفلسطيني ومظاهراته المتوالية قد نجحت في اسقاط هذه المشاريع الثلاثة : سيناء والجزيرة ووادي الاردن .

وفي الوقت نفسه ، كانت الحكومات العربية تعامل اللاجئين الفلسطينيين معاملة غير كريمة ؛ في ٥ حزيران (يونيو) ١٩٤٩ ، بدأت الحكومة اللبنانية تنقلهم بعيدا عن منطقة الحدود مع اسرائيل وفي ٥ ايلول (سبتمبر) اعلن فواز شعلان ، زعيم قبائـــل الرولي ونائبهـــا في البرلمان السوري ، اعتراضه على منـــح اللاجئين الفلسطينيين اراض زراعيـــة . وفي التاسع والعشرين من الشهر نفسه ، اخبر رئيس الوزراء المصري ، حسين سري باشا ، مستر «جوردون كلاب» ، رئيس اللجنة الامريكية التي طافت البلاد العربية لبحث امكانية توطين اللاجئين فيها ، اخبره سري ان مصر لا تستطيع ان تجد مكانا للاجئين فيها . وكانت هذه المواقف ازاء اللاجئين تكشف حقيقة ما تضمره الطبقات الحاكمة العربية ، في ذلك الوقت، للقضية الفلسطينية ، من كراهية وخوف .

ورمت الانظمة العربية بهذه الممارسات الى طي القضيـــة الفلسطينية ، والتمهيد للدخول في صفقة مـع اسرائيل والاعتراف بها ، لذا كان طبيعيا ان تحـــول الانظمة العربيـــة دون السماح للفلسطينيين بممارسة اي نوع من النشاط السياسي · خشيـــة ان يتطور الى كيان سياسي ، يكشف ويهدم مخططات المساومة والتفريط بالقضية الفلسطينية ·

وادى عجز الانظمـــــة العربية وعدم رغبة بعضها في تحرير فلسطين ، الى ممارسة اقسى انواع القهر ضد الشعب الفلسطيني ، لمنعه من ممارسة حقوقه السياسية ، خشية جر الانظمة العربية الى حرب لا تريدها بل تخشاها ، او كشف طبيعتها وتخاذلها ان هي لم تشارك في مثل هذه الحرب· ولجأت هذه الانظمة في الوقت نفسه الى الاساليب الديماغوجية ، لستر عجزها ، فملأت الدنيا بشعارات طنانة واناشيد عنترية · وما من انقلاب عسكري عـربي الا وتعهد بتحرير فلسطين ! بل ذهبت بعض هذه الانقلابات الى حد الزعم بان تحرير فلسطين هو حافزها على اسقاط السلطة السابقة · وهكذا تحولت القضية الفلسطينية الى الدجاجة التي تبيض ذهبا ، وخلقت فئات وقطاعات « المنتفعين بالقضية الفلسطينية » في طول الوطن العربي وعرضه !

وتوالت الضربات الشرسة ضد الاحزاب الفلسطينية المختلفة، وضد فروع الاحزاب القومية بين الفلسطينيين · وانهالت الاتهامات على الحزبيين بانهم انما يعرقلون « مسيرة التحـــــرير » ! وانهم « اقليميون » !

ودب الخلاف بين الدول العربية ـ خاصة بين مصر والاردن ـ ولكن سببه كان على تقسيم الاسلاب بينها ، لا على ضرورة اتبـاع سياسة وطنية تقدمية ازاء المسألة الفلسطينية · لذا كان التصالح بين هذه الدول هو نهاية ذلك الخلاف دائما ·

هذا في حين حمت الحركة الوطنية في البلاد العربية القضية الفلسطينية من التصفية ، ذلك لان تلك الحركة نجحت في منـــع الالتحام بين بعض الانظمة العربية وبين الاستعمار الامريكي · وكان موقف مصر الحيادي من حرب التدخل الامريكي في كوريا (عـام ١٩٥٠) اول ضربة موجهة ضد المشاريع الاستعمارية في الوطن العربي ، ثم تلاه رفض الحكومة الوفدية الانضمام الى قيادة الشرق الاوسط الاستعمارية،التي اسستها امريكا وبريطانيا وفرنسا وتركيا، في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٠ ·

وعندما وصلت المفاوضات المصرية ـ الانجليزية، عام ١٩٥٤، الى مرحلة مرضية من التفاهم ـ على اساس حق القوات البريطانية في العودة اذا ما تعرضت تركيا للخطر السوفياتي المزعوم ـ عرضت لندن مساعيها لمساعدة البلاد العربية على بدء المحادثات مع اسرائيل (٢١ ايلول)، هذا بعد ان قدم ممثلو العرب الدبلوماسيون مذكرة الى وزير الخارجية الانجليزية ، سلوين لويد ، يؤكـدون فيهـا ان « الوقت مناسب لاقامة العلاقات الحسنة بين البـــلاد العربية وبين الدول الغربية الكبرى » · وكانت هذه الخطوة جزءا مـن عمليـات التمهيد لضم تلك البلاد الى حلف استعماري جديد ؛ اذ نشط نوري السعيد ، ساعتئذ ، في القيام بزيارات للعواصم العربية ، معلنا ان الدول العربية ترحب بسياسة التعاون مع الغرب · ولم تكد اتفاقية الجلاء عن مصر توقع، في التاسع عشر من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٤ ، حتى وقعت في تشرين الثاني (نوفمبر) اتفاقية مصريـة ـ امريكية ، قدمت واشنطن بمقتضاها قرضا لمصـــر قدره ٤٠ مليون دولار ، مقابل استقبال القاهرة للمبعوثين الامريكيين الخاصين ، ووضع « جميع المعلومات الضرورية » تحت تصرفهم ·

ومرة اخرى كانت معارضة الشعب المصري للارتباط بعجـلة الامبريالية هي التي افشلت تلك الخطة ، ودفعت بعبد الناصر الى

اعلان معارضته لحلف بغداد ، الذي تم اعلانه في ٢٤ شباط (فبراير) ١٩٥٥ · كما لجأ الرئيس المصري الى الكتلة الاشتراكية للحصول على السلاح · وغطت الدول العربية موجة وطنية عاتية ، حاصرت المشروع الاستعماري ، وحالت دون ضم الاردن اليه ، فكان العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ لتحطيم الحركة الوطنية العربية ، وان كان قد فشل في تحقيق اغراضه ·

غير ان حرب ١٩٥٦ لم تؤد الى قطع الجسور تماما بين الانظمة العربية والدول الامبريالية ، بل عادت واشنطن واعلنت « مبدأ ايزنهاور » ، الذي ايده الملك سعود (٦-٢-١٩٥٧) ، وعلق الامين المساعد لجامعة الدول العربية ، سيد نوفل ، على هذا الموقف قائلا ان المحادثات بين الملك سعود والرئيس ايزنهاور تساعد على تقوية العلاقات العربية مع الغرب · وقد لجأت النظم الرجعية الى طلب مكشوف للتدخل الاستعماري في لحظات الازمة · فنزل مشاة الاسطول الامريكي في لبنان ، وجاءت قوات المظليين الانجليز الى الاردن عام ١٩٥٨ ·

ومنذ عام ١٩٥٧ وحتى نهاية هذه المرحلة ، ركزت الامبريالية الامريكية اعتمادها بصورة خاصة ، على محور عمان - الرياض ، لتنفيذ مخططاتها المعادية للحركة الوطنية بشكل عام ، وتعزيز مشاريعها المؤيدة لاسرائيل بشكل خاص · ورفعت هاتان العاصمتان العربيتان لواء معاداة الشيوعية في سفور ، فكانتا تتهمان كل عربي معاد للاستعمار والصهيونية بأنه عميل اجنبي · ومع ذلك كانت الانظمة العربية القائمة ، وبعض القيادات الوطنية الفلسطينية ، تعود فتنظر الى حكام الاردن والسعودية بعين العطف ، المرة تلو الاخرى ، مما رمى الشعوب العربية في الضياع السياسي ، وجعلها تدور في حلقة مفرغة ·

ففي نهاية عام ١٩٥٧ ، عقدت الاجتماعات بين المبعوثين

الامريكيين والملكين سعود وحسين « لحماية العرب من حكومة سوريا الواقعة تحت النفوذ السوفياتي » ! وفي العاشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٧ ، اتهم الملك حسين الحكام المصريين بأنهم باعوا انفسهم للشيوعية ، وانهم يستغلون القومية العربية لحرف انظار الرأي العام المصري عن الحالة الداخلية المتدهورة ، وان اتفاقية الدفاع المشترك بين مصر وسوريا لا تساوي ثمن الورق الذي كتبت عليه ...

وبلغت الامور حد تقديم الاردن شكوى الى مجلس الامن من تدخل الجمهورية العربية المتحدة في شؤونه الداخلية (١٧-٧-٥٨)، كما حذر عبد المنعم الرفاعي ، المندوب الاردني في هيئة الامم ، الاتحاد السوفياتي امام الجمعية العامة من « الصيد في مياه الشرق الاوسط المضطربة » (٣-١٠-١٩٥٨) .

وتتكرر السلسلة نفسها طوال ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ ، ١٩٦١ ، حيث يدين الملك حسين النظام الناصري ، المرة تلو المرة ، بالشيوعية والخيانة ، ويعلن بأعلى صوته ان هناك خطرا جديا لاستيلاء الاتحاد السوفياتي على الشرق الاوسط الخ ... ويعقد الاتفاقات مع العربية السعودية ضد مصر ، قبل ثورة السلال في اليمن وبعدها ، تحت مظلة المظاهرات الجوية الامريكية ، في جدة والرياض (تشرين الثاني ١٩٦٢) . الا ان الدول العربية ، التي كانت تحكمها البورجوازية الصغيرة ، وكذلك الجامعة العربية ، والزعماء الفلسطينيين ، كانوا يعودون كل مرة ويمدون يد التعاون والمساعدة لهؤلاء « الاخوان العرب » ، بدعوى مساعدتهم على تصليب موقفهم حيال اسرائيل ... ولا يكون هذا دون جدوى فقط ، بل يعمل باستمرار على اشاعة البلبلة في الاذهان العربية ، ويحول دون تكوين جبهة عربية صلبة تستطيع الانتصار على اسرائيل ، وتخلق هذه المواقف هوة متزايدة العمق بين حكام القاهرة ودمشق والقياد

الرسمية الفلسطينية من جهة ، وبين الشعوب العربية من جهة اخرى · ولا شك في ان الانظمة الرجعية العميلة في بعض البلدان العربية استطاعت ان تنقذ نفسها باستمرار، بفضل المعونة السياسية التي قدمتها اليها الحركة القومية للبورجوازية الصغيرة ، حركة القومية العربية المطلقة ووحدة الصف العربي الخ ··· وهي التي تحاول تجريد الاهداف الوطنية من مضمونها واساسها الطبقيين · ولا شك ـ ايضا ـ في ان نفس السياسة المعتمدة على المبادىء القومية الطوباوية تسببت ، كل مرة ، في انحسار الحركة الوطنية العربية ، وهزيمتها امام العدوان الصهيوني والاستعماري ·

تمزيق فلسطين :

دخلت الجيوش العربية فلسطين ، في الخامس عشر من ايار (مايو) ١٩٤٨ ، وكان قد سبقها اليها « جيش الانقاذ » · وانتهت المرحلة الاولى لهذه الفترة التاريخية بأن احتلت اسرائيل ٦ر٦٠٠ كيلومتر مربع من الدولة العربية الفلسطينية، التي كان قرار التقسيم قد رسمها ، وضم الاردن ٥ر٥٠٠ كيلومتر مربع منها ، وظل تحت الادارة المصرية ٢٥٨ كيلومتر مربع (قطاع غزة) ، وهو الباقي · فلم تستقر الدولة الصهيونية فحسب ، بل قضي على الدولة العربية ايضا ، ولم تر النور حتى كتابة هذه السطور ·

لقد كان النصر حليف حكومة تل ابيب ، عندما امر مجلس الامن بالهدنة في ١٦ـ١١ـ١٩٤٨ ، فتوقف القتال ، وتم توقيع اتفاقيات الهدنة في رودس بين اسرائيل والدول العربية، حتى النصف الاول من عام ١٩٤٩ · وفي هذه الاثناء كانت القوات العراقية تسلم الاراضي الفلسطينية التي احتلتها الى الفيلق العربي في منطقة نابلس وطولكرم وجنين · كما تخلت القيادة المصرية العامة عن ادارة بيت لحم الى السلطات الاردنية ·

ومنذ منتصف ١٩٤٩ حتى ١٩٥٩ تقريبا ، كان الموقف العملي لمعظم الدول العربية هو طي القضية الفلسطينية ، رغم المناوشات العسكرية المتقطعة التي كانت تجري بين قوات الطرفين ، بل وحتى رغم العدوان الثلاثي · فطوال هذه السنوات العشر ، ابدت مختلف العواصم العربية ـ حسب الظروف ـ استعدادها لايجاد نوع من التسوية المباشرة ، اوغير المباشرة ، مع اسرائيل ، والاعتراف بها · وفي الوقت نفسه ، لم تتخذ دولة عربية واحدة ـ دون استثناء ـ اي خطوة عملية تمكن الفلسطينيين من ممارسة حق تقرير مصيرهم في المناطق التي تواجدوا فيها تحت الادارة العربية ·

وبدأ هذا الموقف يتغير فجأة منذ ١٩٥٩ ، عندما اقرت لجنة من خبراء الجامعة العربية مشروع « الكيان الفلسطيني » وبعد ان صرح الملك سعود لداغ همرشولد ـ سكرتير عام الامم المتحدة ـ بأن « الدول العربية ستعلن الجهاد لاستعادة الارض السليبة ، ان لم يعد اللاجئون الفلسطينيون الى ديارهم » (٦ـ١ـ١٩٥٩) ·

ويبدو ان تغيير المواقع هذا ، يرجع الى عدة عوامل والتقائها:

● منها ان الدول العربية بدأت تدرك ان الشخصية الفلسطينية ما زالت حية ، فرأت من الافضل احتوائها منذ البداية · وكان الحكم الجديد في العراق ـ بعد تموز (يوليو) ١٩٥٨ ـ قد بدأ يميل الى فكرة الدولة الفلسطينية ، الامر الذي كان ينذر بتطورات ، رأت الدول العربية من الضروري مواجهتها ·

● ومنها رغبة امريكا في ممارسة نوع من الضغط على اسرائيل بصورة غير مباشرة ، حتى تهجر « السياسة الاستقلالية » · وقد نفذت واشنطن هذا الخط بواسطة السعودية والاردن في اغلب الاوقات ، متخذة منهما ـ ومن علاقاتهما مع منظمة التحرير الفلسطينية ـ عنصر توازن ازاء اسرائيل عند اللزوم ·

● ومنها محاولة الجمهورية العربية المتحدة زيادة تلوين سياستها بالطابع العربي ، استكمالا للحملة التي شنتها ، حينئذ ، ضد الشيوعية في مصر وسوريا ·

فبعد سلسلة من الشد والجذب ، وخاصة بين مصر والاردن – داخل الجامعة العربية – وافق مجلس الجامعة العربية في الدار البيضاء (ايلول ١٩٥٩) على انشاء « اجهزة فلسطين » وهيئة تقوم بالتنسيق بينها · وعني المشروع ان يعتبر التنظيم الجديد ممثلا لفلسطين في الجامعة وعلى النطاق الدولي ، خشية ان يصل صوت الفلسطينيين – بطريقة اخرى (١٢) · والقى عبد الناصر خطابا شهيرا – في اللاذقية – تعهد فيه باعادة الحقوق المغتصبة للفلسطينيين العرب وبالقضاء على احلام اسرائيل التوسعية ·

وفي هذه الفترة ايضا ، صحت الهيئة العربية العليا من سباتها الطويل في منفاها ببيروت · ففي السابع والعشرين من شباط (فبراير) ١٩٦١، اعلنت انها تنوي انشاء جهاز رسمي مسؤول يعالج الشؤون المتعلقة بالمشكلة الفلسطينية، ويكرس نفسه لتعبئة الشعب الفلسطيني «سياسيا ومعنويا وعسكريا» · وفي ذكرى وعد بلفور (٢–١١–٦١) اصدرت هذه الهيئة بيانا ، دعت فيه الدول العربية الى تسليم القضية الفلسطينية لاصحابها الذين تمرسوا في النضال ضد الاستعمار والصهيونية لمدة اربعين عاما (كذا) ···

المقاومة الوطنية في اسرائيل :

توهمت الدوائر الاسرائيلية الحاكمة – بعد ١٩٤٩ – ان الفرصة مؤاتية لكي تنجز عملية استيعاب كاملة للعرب الذين بقوا فيها ، وكان هذا الاعتقاد مبنيا على اساس ان القيادات الاجتماعية والسياسية العربية السابقة اخلت اماكنها · غير ان الشعب العربي الفلسطيني استطاع – من خلال تجاربه الذاتية – ان ينضج من بين

صفوفه القيادات الجديدة التي تعبر عن وجوده ٠

ولعب حزب الماباي الدور الرئيسي في محـاولة تنفيذ مخطط تلك الدوائر الاسرائيلية ، فشكل اكثر من قائمة عربية في مختلف الانتخابات النيابية ، بغيـــة تجميع الاصوات من شتى الطوائف والمناطق ٠ وسميت هذه القوائم باسم « الحزب الديمقراطي العربي» و «حزب التقدم والتطور» و «حزب التعاون والاخوة» ٠ ونوابها في الكنيست من كبار اصحاب الاراضي او التجار او الاعيان السابقين، اي الفئة نفسها التي ايدت سلطات الانتداب (١٣) ٠ وتعمل هذه الفئة على استمرار انتقال الاراضي العربية الى المؤسسات الصهيونية مقابل ملء جيوب افرادها البارزين بالليرات الاسرائيلية ٠

كما انشأ حزب الصهيونيين العموميين حزبا عربيا هو «حزب الوسط» ، واشرف حزب «احدوت هاعفودا» على تأسيس « حـزب العمل الاسرائيلي العربي » عام ١٩٥٨ ٠ وليس لهذا الحزب مـــن برنامج ســوى « الحيلولة دو التغلغـــل الشيوعي في الاوســـاط العربية » (١٤) ٠

واستطاعت الاحزاب الموالية للصهيونية ان تحصد ما يقـرب من ثلثي اصوات العرب في انتخابات ١٩٥١ و ١٩٥٥ ٠ ولكن هذه النسبة اخذت تهبط بوضوح ابتداء من الكنيست الرابع (١٩٥٩) لصالح الحزب الشيوعي الاسرائيلي اساسا ، خاصة وان السلطات الاسرائيلية قاومت ، في شراسة ، كل محاولة لاقامة تنظيم سياسي عربي قومي في اسرائيل ، ولان العـــرب الفلسطينيين وجدوا في الحزب الشيوعي الاتجاه غيـــر الصهيوني الوحيد في اسرائيل ٠ واصبح هذا الحزب الوحيد الذي يضم نسبة كبيرة من العـرب بين اعضائه وفي لجنته المركزية ، واستمرت جريدته « الاتحاد » فـــي الدفاع عن العرب ازاء الاضطهاد ، وفضح الصهيونية والدعـــوة

للحياد الايجابي الخ٠٠٠ وقد نجح الحزب اكثر من مرة في التحالف مع بعض الاتجاهات القومية واليسارية العربية ٠

وعلى العكس ، لم يستطع حزب المابام جذب عرب اسرائيل اليه ، لان سياسة انصاف الحلول التي يتبناها لا تتمشى مع الاستقطاب الطبقي والسياسي الشديد الذي يجري بين الاقلية العربية٠ وتوقفت مجلته الادبية والسياسية الشهرية العربية«الفجر» عن الصدور عام ١٩٦٢ ٠

وقد اقترن اشتداد ساعد التيار اليساري والشيوعي بين عرب اسرائيل بازدياد النشاط الموجه ضد القمع الاسرائيلي ٠ فمنذ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٩ ، رفضت قبيلة العزازمة البدوية التعهد بالولاء لدولة اسرائيل ، فطردتها السلطات الاسرائيلية خارج الحدود ٠ وظل « مؤتمر العمال العرب » قائما في الناصرة حتى عام ١٩٤٩ ، رغم اختفاء المنظمات النقابية العربية الاخرى ٠ وفي حزيران (يونيو) ١٩٥١ ، اجتمع في عكا ٧٫٠٠٠ عربي من ١٤ قرية من قرى الجليل ، وطالبوا بأعادة اراضيهم اليهم ٠ وفي ١٩٥٢ ، اتحدت الاقلية العربية في حركة احتجاج هائلة على قانون الجنسية وما به من تمييز عنصري ؛ فأعلن الاضراب العام في الناصرة ، وعقدت اجتماعات الاحتجاج في جميع المدن العربية ، وأرسلت الوفود الى العاصمة ؛ للتعبير عن رفض العرب للقانون الذي حرم ٥٠٪ منهم من حق المواطنية ٠

وفي تموز (يوليو) ١٩٥٣ ، قدمت لجنة شكلها ستون عربيا، قائمة بالمطالب العربية الى الكنيست الاسرائيلي ، تضمنت الغاء قانون نزع الاراضي العربية ، واعطاء حرية التحرك وحقوق المواطنة الكاملة للعرب في اسرائيل ٠

ومنذ ظهرت عمليات المقاومة المسلحة العربية ، لجأت سلطات تل أبيب الى المذابح الجماعية في معسكرات اللاجئين والقرى العربية

(كفر قاسم في تشرين الاول ١٩٥٦) · ومقابل هـــذه الاعمال الوحشية بدأت تظهر العمليات الفدائية ضد الاحتـــلال الاسرائيلي منذ عام ١٩٥٣ ·

وفي تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٥٧ تظاهرت مدينة الناصرة تأييدا لمصر ، واصطدمت بقوات البوليس الاسرائيلي ·

وفي تموز (يوليو) ١٩٥٨ ـ بعد انشاء الجمهوريـــة العربية المتحدة في مصر وسوريا ـ تشكلت في اسرائيل «الجبهة العربيـة» بمساندة الشيوعيين في الناصرة وعكا ، واقيمت للجبهة فـروع ـ بعد ذلك ـ في اغلب المراكز العربية · واتخذت السلطات الاسرائيلية مختلف اجراءات القمع ضد هذا التنظيم ، الذي وحد صفـــوف الاقلية العربية على اساس مطالبها القومية · وقد انحلت الجبهـة بعد وقوع النزاع بين عبد الناصر وعبد الكريم قاسم ، اذ ترتب على هذا النزاع وقوع الانقسام بين الشيوعيين والقوميين في اسرائيل، وترك الطرف الثاني الجبهة ليؤسس « جماعة الارض » · وقد نتج عن هذا الانقسام انأصيب القوميين والشيوعيين معا بالضعف لفترة غير طويلة من عام ١٩٥٩ · غير ان تجربة الجبهة كانت علامة على اشتداد الوعي العربي السياسي ، وجد تعبيرا عنه في تدهور نفوذ القوائم العربية التابعة للماباي ·

وفي اول ايار (مايو) ١٩٥٨ نظم العمـــال العرب مظاهرة ضخمة في الناصرة ، هاجمها البوليس الاسرائيلي هجوما وحشيا، جرح بسببه العشرات من المتظاهرين · وعلى اثر هذه الظـاهرة ، نفت السلطات الاسرائيلية العشرات الى خارج الحدود · وتكررت المظاهرات في المناطق العربية ، مثل ام الفحم ، حيث هاجم الشباب العربي البوليس وهو يهتف « يحيا ناصر! الى الجحيم يا اسرائيل!» وفي تموز (يوليو) تمكن ٦٦فدائيا كانوا معتقلين في سجن « شطا» الاسرائيلي من الفرار ·

وفي ايلول (سبتمبر) ١٩٦١ تجددت المظاهرات العنيفة في الناصرة ، احتجاجا على قتل ٧ من العرب على ايدي دورية اسرائيلية على حدود قطاع غزة ٠

في قطاع غزة وسوريا

وضعت الظروف الفلسطينيين في قطاع غزة وسوريا في موقف شائك : فهم من ناحية يدركون ان حكومتي الدولتين ـ مصر وسوريا ـ كثيرا ما تنظران الى قضية اللاجئين وتحرير فلسطين كمواد ملتهبة خطرة ، مما يثير التناقض بينها وبينهم ، ومن جهة أخرى ، تدعوهم روح التضامن العربي الى البحث عن « أهدأ الوسائل » واكثرها سلاسة لحل ذلك التناقض توحيدا للصفوف ضد الاستعمار والصهيونية ٠ وكانت ازدواجية النضال الفلسطيني ـ وما زالت ـ السبب الرئيسي للتعرجات التي مرت بها الحركة الوطنية جنوبي وشمالي الحدود الاسرائيلية ٠

ومنذ البداية لم ترد الرجعية المصرية الحاكمة ان تترك القيادة التقليدية للحركة الوطنية الفلسطينية تسقط ، كما كان مصيرها التاريخي الحتمي ؛ فلم تجب علىمؤتمر اريحا المساند لعبدالله الا بمجموعة لا تقل عنه تضليلا ٠ ففي الرابع من أيلول (سبتمبر) ، ١٩٤٨ ، أعلن الشيخ حسن البنا ، مرشد الاخوان المسلمين ، تأييده لتشكيل جيش من العرب الفلسطينيين وتكوين حكومة فلسطينية عربية ، عمودها الفقري الهيئة العربية العليا ٠ وفي العشرين من الشهر نفسه ، تكونت « حكومة عموم فلسطين » برئاسة احمد حلمي باشا ، وأختير المفتي أمين الحسيني ، رئيسا لمجلس وطني فلسطيني هزيل عقد في غزة ٠ وكان طبيعيا ان ترفض الاردن الاعتراف بهذا التشكيل ، كما أعلنت الولايات المتحدة ـ على لسان روبرت لوفيت في ١٣ ـ ١٠ ـ ١٩٤٨ ـ أنها لن تعترف بهذه الحكومة ٠ وجمعت

الحكومة المصرية مؤتمرا عربيا في القاهرة . في الحادي عشر من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٨ ، القيت فيه رسالة من الملك فاروق قال فيها ان « قرارات مؤتمر أريحا لا تمثل ارادة الشعب الفلسطيني» ولكن حكومة عموم فلسطين لم تعش طويلا ، وسجلت الجامعة العربية ، نهايتها عام ١٩٥٢ ، حينما قررت الجامعة « اعادة تنظيم الشعب الفلسطيني » ؛ ومع ذلك ظلت الهيئة العربية العليا تستيقظ بين الحين والاخر ؛ الى ان وضع أمين الحسيني يده في يد الملك حسين ضد الحركة الوطنية الاردنية عام ١٩٦٦ .

وفي هذه الاثناء انبثقت من معسكرات اللاجئين تنظيمات ، بعضها عابر، والآخر استمر فترة غير قصيرة من الوقت . ففي حزيران (يونيو) ١٩٤٩ تقدم مندوبون عن اللاجئين الى الجامعة العربية ، يرجون فيها الحكومة المصرية ان تسمح للاجئين بالعمل حتى يكسبوا وسائل معيشتهم . وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٠ اجتمع مؤتمر لمندوبي اللاجئين في سوريا ولبنان ، انتخب لجنة تنفيذية ، قررت مقاطعة وكالة الغوث ، وتنظيم المقاومة النشطة لاجراءاتها ، مع الزحف الى الاراضي المحتلة ، اذا لم تقم الامم المتحدة باعادة اللاجئين الفلسطينيين الى ديارهم . ورغم ان هذه القرارات لم تنفذ عمليا ، الا انها عبرت عن مطالب اللاجئين وطموحهم الوطني .

ومنذ النكبة نشطت المجموعات اليسارية في معسكرات اللاجئين ، خاصة في قطاع غزة ، واخذت المنشورات الشيوعية تحمل الغرب الاستعماري مسؤولية أحوالهم ، وتطالب بالعودة ، والتعويض ، واقامة دولة فلسطينية عربية مستقلة (١٥) .

ونظم الحزب الشيوعي بقطاع غزة المقاومة لمشاريع توطين اللاجئين ، المتفق عليها بين وكالة الغوث وبين الحكومة المصرية في الرابع عشر من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٣ ، وهو الاتفاق

الذي نص على تعهد القاهرة بأيصال المياه الى سيناء لري ٢٫٠٠٠ فدان فيها وتوطين من ٥٠ ـ ٦٠ الف لاجيء هناك · ولم تقبر هذه المشاريع بسبب وجود الصعوبات الفنيـــة فحسب ، بل وبسبب مظاهرات اللاجئين في قطاع غزة ـ بقيادة الشيوعيين ـ رفضا لاي حل سوى العودة ·

وفي عام ١٩٥٤ تم استقصاء لمواقف اللاجئين ، بيّن مـدى صمودهم واصرارهم رغم مرور ست سنوات علـى النكبة (١٦) اذ سجل رفضهم لكافة المحاولات العربية لتسوية قضيتهم على اساس التوطين ، هذا بالاضافة الى استعداد اغلبية العينة المتخذة لقبول اسرائيل ، او دولة عربية ـ يهودية ، بشروط معينة ، أما الاقلية الباقية فقد وافقت على فلسطين من دولتين احداهما عربية والاخرى يهودية ، وتقوم الثانية على أساس التخلي عن الصهيونية تماما · وتبين هذه النتائج استمرار اللاجئين عـلى موقفهم مـن القضية الوطنية ، بصورة أساسية ·

وقد نظم الشيوعيون في قطاع غزة « الجبهة الوطنية » أبان العدوان الثلاثي والاحتلال الاسرائيلي للقطاع ، وقـادت الجبهة النشاط السياسي المعادي للاحتلال الاسرائيلي · في حين رفضت التيارات البورجوازية في القطاع فكرة التحالف التـي طرحها الشيوعيون ، بسبب نص الميثاق المقترح من الشيوعيين على أن نضال الشعب الفلسطيني لا يعتمد على كفاحه فحسب ، بل علـى الشعوب العربية الاخرى ، وعلى تأييد القوى التقدمية في العالم ، وعلى مساندة الشرفاء في اسرائيل له (١٧) ·

وفي أواخر الخمسينات ، تشكل في قطاع غزة « الاتحـاد القومي » على غرار الاتحاد القومي في مصر وكامتداد له · وفـي عام ١٩٦٠ عملت الجمهورية العربية المتحدة على انشاء اتحاد مثله في سوريا ايضا · وفي استعراض ٢٣ تمـوز (يوليو) ١٩٦٠

بالقاهرة ظهر تشكيل من الجنود الفلسطينيين الذين تم تدريبهم في غزة · وفي نيسان (ابريل) ١٩٦١ أرسل الاتحاد القومي الفلسطيني مشروع عملي « لتعبئة الفلسطينيين في جيش موحد » · ولكن عبد الحميد السراج ـ رئيس المجلس التنفيذي في سوريا آنذاك ـ صرح في تموز (يوليو) ١٩٦١ بأنه معارض لفكرة انشاء جيش فلسطيني · وبينت هذه التناقضات مدى تردد الحكومة المصرية أمام الاساليب المختلفة لاحتواء البذور الاولى لتحرك فلسطيني ، وخوفها من أن تتحول هذه الحركة الى ثورة جماهيرية تحررية واسعة ، خاصة وأن الاتحاد القومي الفلسطيني بدمشق اعلن نيته الاتصال بشقيقه في قطاع غزة ؛ بغية توحيد الصفوف (تموز ١٩٦١) · وحينئذ ظهرت مختلف القيادات التي تدعو الى اخضاع التحرك الفلسطيني للدول العربية وللجامعة العربية · فهذه الهيئة العربية العليا في بيروت ، تدعو جميع الدول العربية الى انهاء خلافاتها (أيار ١٩٦٠) ، وهذا مدير المكتب العربي الفلسطيني في نيويورك ، عزت طنوس ، يصرح بأن العمل من أجل ابراز الكيان الفلسطيني يجب ان يتم بالتعاون مع جميع الدول العربية ، ومع الحفاظ على الكيان الاردني ، وان الغرض من الكيان الفلسطيني هو ايجاد لسان حال يعبر عن الفلسطينيين ، وبشكل خاص أمام هيئة الامم (حزيران ١٩٦١) ، وفي أيلول ١٩٦١ وجه أسامة النقيب ، رئيس الاتحاد القومي الفلسطيني في سوريا ، نداء الى الدول العربية كي تقيم كيانا فلسطينيا تنفيذا لقرارات الجامعة العربية · وهكذا بذلت جميع المحاولا تالممكنة لفرض تنظيم من أعلى على الجماهير الفلسطينية · ومع ذلك فان الطبيعة المتفجرة للقضية الفلسطينية كانت تدفع الى التحرك · واشتد هذا التحرك الى درجة جعلت الهيئة العربية العليا ترسل احتجاجا الى الرئيس الاميركي على مساندة الولايات المتحدة الامريكية لاسرائيل ·

وقد وجد هذا التحرك الجديد تعبيرا ادبيا أيضا عنه ، وخاصة في الشعر الذي كتبه كمال ناصر ومعين بسيسو وفدوى طوقان وغيرهم ، ممن وصفوا آلام اللاجئين وآمالهم في العودة ٠

في الاردن

وجد الفلسطينيون ظروفا خاصة في الاردن ٠ فبعد ضم الضفة الغربية الى حكومة عمان ، اصبح الفلسطينيون الجانب الاكثر تطورا من السكان ، اقتصاديا واجتماعيا ، وبالتالي سياسيا ٠ وقد ترتب على هذا نتيجة مزدوجة ومتناقضة في آن واحد : فمن جهة ، تم استيعاب الفلسطينيين في الدولة الاردنية لفترة طويلة ، مما أجل طرح القضايا المتعلقة بالقومية الفلسطينية الى ما بعد عام ١٩٦٣ ٠ ومن جهة أخرى ، قوى ذلك الوضع من العداء الطبقي بين حكام عمان ـ المستندين الى مشايخ القبائل والاستعمار الاجنبي ـ وبين البورجوازية الصغيرة والفلاحين والعمال واللاجئين الفلسطينيين ، وكذلك البورجوازية القومية الفلسطينية ٠ وقد انضمت البورجوازية المتوسطة المنحدرة من أصول فلسطينية الى الطبقة الحاكمة الاردنية، مما زاد من خفوت القومية الفلسطينية في تلك الفترة ٠ ويرى الحزب الشيوعي الاردني انه في الستينات ، استطاعت سياسة الاستعمار الجديد تحقيق فوائد للفئات العليا من البورجوازية الوطنية الخاصة ، ولفئاتها الاخرى بمقادير متفاوتة كذلك ٠ ولكنها في الوقت نفسه ربطت بقيود مالية غير منظورة ٠ ويشير الحزب المذكور انه قد نشأ عن هذه السياسة وضع جديد في علاقات القوى الطبقية ، وفي درجة التمايز فيما بينها ، وانتقلت الفئات العليا من البورجوازية الوطنية الى التحالف مع طبقة كبار الملاك العقاريين والرأسمالية الكومبرادورية ٠ وانعكس هذا في تركيب الوزارات نفسها وفي البرلمان ؛ حيث دخلت اليه عناصر كانت قد انسحبت منه في عام ١٩٥٧ ٠ وبالاضافة الى ذلك فقد اتسعت وتعززت مواقع

البورجوازية الكومبرادورية بسبب التسهيلات التي قدمتها الاخيرة بالتعاون مع المصارف لتغطية عمليات البيع بالتقسيط . واخذ صغار الفلاحين وفقراؤهم يتأثرون سلبيا بقيام تربيـــة الدواجن والمواشي ، وكذلك بالتسهيلات التي كانت تقدم لاغنيـاء الفلاحين في مجالات التسويق والاقراض والاعفاء من الرســـوم الجمركية على الآلات والمواد الزراعية ، بسبب ما يجره ذلك من فروق فـي الانتاجية لصالح اغنياء الفلاحين ولصالح اصحاب مزارع الدواجن والمواشي . الامر الذي زاد مـــن عمليات الهجرة الـــى المدن والخارج (١٨) .

وتولت البورجوازية الوطنية قيادة الحركة الشعبية في النصف الاول لهذه المرحلة ، ولكن سرعان ما انكشف ضعفها الجذري ، وعدم قدرتها على الدفع **بالقوى الثـورية** الى آخر الشوط (وزارة النابلسي) . وقد كان فشلها بداية لانعطافة ادت الـــى ظهور الشخصية الفلسطينية ، مرة اخـــرى ، تحت قيادة البورجوازية الصغيرة في منتصف الستينات .

وكان الوضع الخاص الذي تمتعت به البورجوازية الصغيرة الاردنية (حيث اجتذبت في أجهزة الدولة المختلفة) يقلل من طاقتها الثورية ، كحليف للطبقة العاملة والفلاحين الفقراء في النضال من أجل التغيير الاجتماعي والاقتصادي الديمقراطي ، وفـــي حركة التحرر بأكملها . هـــذا في حين ساهمت البورجـوازية الفلسطينية المتوسطة والصغيرة في المدن بفاعلية في النضال الوطني . ولـم يحدد موقفها من الدولة انتماؤها الى هيئة الموظفين البيروقراطيين، بل كان يحرك هذه الطبقة مصالحها الخاصة، التي تقتضي الاشتراك في النضال ضد الامبريالية ، ومن أجل الاستقلال والتقدم (١٩) .

وأخيرا كان الاردن مسرحا للصراع بيـــن الاستعمارين الانجليزي والامريكي واتفاقهما ايضا ، ومطمعا لهمـا ؛ باعتباره

قاعدة هامة في الشرق الاوسط · ولهذا تميزت الاحداث فيه بالشد والجذب العنيفين ، بسبب الدور المتزايد الـــذي لعبته الجماهير الشعبية في الحركة الوطنية ·

★★★

نظم الملك عبدالله « المؤتمر الفلسطيني الوطني » في مواجهة حكومة غزة ، ونال هذا التشكيل تأييد بعض الاعيان الفلسطينيين ، الذين عملوا في ادارة الانتداب من قبل ، أو كانوا يساندون مشروع سوريا الكبرى ، مثل احمد بك خليل ، رئيس بلدية حيفا السابق ، وسليمان طوقان وعوني عبد الهادي · واجتمع المؤتمر في أريحا ، في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٨ ،برئاسة الشيخ محمد علي الجعبري، وأصدر نداء لاستمرار النضال لتحرير فلسطين ، كما طالب بضرورة توحيد فلسطين مع شرق الاردن ، باسم « سوريا الجنوبية » (٢٠) · وفي اليوم نفسه اعلنت الحكومة البريطانية ـ رسميا ـ ان قواتها سوف تدافع عن شرق الاردن اذا تعرض للهجوم· وفي أول كانون الاول (ديسمبر) اجتمع مؤتمر أريحا مرة أخرى ، وبايع عبدالله ملكا على فلسطين ، وأيد البرلمان الاردني الضم في الثالث عشر من الشهر نفسه · وتلى هذا تدفق القوات البريطانية طـوال النصف الاول من عام ١٩٤٩ ، الى العقبة، بناء على طلب الحكومة الاردنية·

وفي أيار (مايو) ١٩٤٩ ، عدل توفيق ابو الهدى وزارته بضم ثلاثة من الفلسطينيين اليها · وهم : مـــوسى ناصر ، خلوصي الخيري ، وروحي عبد الهادي · وهم المعروفون بعلاقاتهم القديمة بالاسرة الهاشمية ، وبالانتداب البريطاني · وتم تعيين يوسف هيكل ـ رئيس بلدية يافا السابق ـ أول سفير اردني لدى الولايات المتحدة. وارتبطت هذه الخطوة الاستيعابية بنفـــي العنصرين الوطنيين البارزين : عبدالله الريماوي وكمال ناصر (الاخير هو رئيس تحرير

الجيل الجديد التي كانت تصدر في رام الله) الى نقطة الحدود «البابر» الصحراوية · وفي التاسع والعشرين من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥١ ، ألقي القبض على فؤاد نصار ، الامين العام الاول للحزب الشيوعي الاردني ، وعلى ثلاثة من مساعديه ، حيث صدرت عليهم أحكام قاسية بالسجن لسنوات عديدة في العشرين من شباط (فبراير) ١٩٥٢ ·

وفي أوائل ١٩٥٠ ، صدر قانون التجنيد الاجباري لجميع الاردنيين ، ولكن تقوية الجيش الاردني لم يقصد بها الوقوف في وجه اسرائيل ، بدليل ان الملك عبدالله أخبر الدول العربية أن بنيته عقد معاهدة عدم اعتداء مع تل ابيب ، وهي المعاهدة التي قدم مشروعها موسى شاريت الى مجلس الوزراء الاسرائيلي ، في الثامن والعشرين من شباط (فبراير) من السنة المذكورة ، والتي وافق عليها من حيث المبدأ ، البرلمان الاردني الجديد في وقت لاحق · وأثار هذا الموضوع ضجة ، خاصة بعد أن طلب عبدالله التل ـ القائد السابق للقوات الاردنية في القدس ـ أن يدلي بشهادته أمام مجلس الجامعة العربية ليدين عبدالله بالخيانة ·

وعندما أجريت الانتخابات لأول مجلس نواب اردني ، في نيسان (ابريل) ١٩٥٠ ، اختار الناخبون في الضفة الغربية أفرادا عرفوا بمعارضة الملك · وخاصة من أولئك المرتبطين بحزب البعث · وقيل ان عبدالله شجع سليمان النابلسي على تشكيل الحزب الوطني الاشتراكي (٢١) ، بغية ايجاد التوازن مع البعث ، ولكن الزمام افلت من أيدي السلطة الاردنية في هذا الحزب بسبب التفاف البورجوازية الفلسطينية حول النابلسي وحزبه ·

وقد تأكدت النية الاردنية الودية نحو اسرائيل، في أيار (مايو) عندما طردت القوات الاسرائيلية نحو ١٢٫٠٠٠ عربيا من قريتين قريبتين من الخليل ، واحتلت اراضيهما ، فاعلنت حكومة عمان ان

الاسرائيليين تصرفوا طبقا للحقوق المعترف بها لهم فـــي اتفاقية الهدنة ...

وعندما صدر الحساب الختامي للسنة المالية ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ اتضح ان اكـــثر من ٢٥٪ مـــن المصروفات مخصصة للبوليس والسجون . وفي آب (اغسطس) ١٩٥٠ قررت الحكومة تطبيق قانون مكافحة الشيوعية على الفلسطينيين ؛ وشددت الرقابة على الصحف في أيلول (سبتمبر) من السنة نفسها . ولكن موجة المعارضة أخذت في التزايد واكتسبت جريدة النابلسي ، «الميثاق» ، شعبية كبيرة ، فمنعتها الحكومة من الصدور في آذار (مارس) ١٩٥١ . ورفض مجلس النواب التصديق على الميزانية ، فبادر عبدالله الى حله في أيار (مايو) من السنة نفسها . وفي ٢٠ تموز (يوليو) ١٩٥١ قتل عبدالله على يد مصطفى شكري عشو ، وهو ترزي فلسطيني شاب من القدس ، ووجهت الحكومة الاردنية لعبدالله التل ولبعض عائلة الحسيني ولفلسطينيين آخرين ، تهمة تنظيم المؤامرة لاغتيال الملك.

وخلف طلال والده عبدالله ، ففتح أبواب الاردن على مصاريعها للغزو الامريكي الاقتصادي ، ووثق علاقته بالعـربية السعودية ، وأجرى بعض الاصلاحات بهدف كسب الرأي العام الى جانبه ؛ منها اعطاء مجلس النواب حق اسقاط الوزارة بأغلبية معينة ، ورفع الرقابة عـلى الصحف ، وافرج عن بعض المعارضين . وان كانت الحملة ضد الشيوعيين استمرت واتسعت ، اذ ألقي القبض ـ كما رأينا ـ على فؤاد نصار وسليم الياس وجابر حسين والـياس حنا شماع ،وحكم عليهم بعقوبات تتراوح بين ٦ و ١٠ سنوات . وفي الشهر نفسه الذي صدرت فيه الاحكام كانت حكومة طـــلال توقع اتفاقا للمعونة الفنية مع الولايات المتحدة الامريكية ، تبعه اتفاق آخر مع شركة «التابلاين» الامريكية لمرور الزيت السعودي بالاراضي الاردنية .

واستطاعت الشبكة البريطانية في الاردن تنحيـــة طلال ، واستعادة نفوذها المهدد ؛ عن طريق تنصيب حسين ملكا فـي آب (اغسطس) ١٩٥٢ ٠

واشتد عود المعارضة في اواخـــر عام ١٩٥٢ ، اذ تفجرت المظاهرات في القدس ونابلس ورام الله تطالب باستقالة توفيق أبو الهدى ، كما أضرب الطلبة في عمان ٠ وردت الحكومة الاردنية بأعمال قمع عنيفة ، في الوقت الذي كان فيه الامريكان والانجليز يغدقون عليها بالاموال ، تحت عناوين مختلفة ٠

وخلال سنة ١٩٥٣، بدأت بعض الاعمال الفدائية ضد اسرائيل، فقامت القوات الاسرائيلية بهجوم «تأديبي» على قرية قبيـة ، فـي الرابع عشر من تشرين الاول (أكتوبر) ، قتلت فيـــه ٥٣ عربيا ٠ واندلعت المظاهرات في الاردن كله ، وقـــذف المتظاهرون السفارة الفرنسية ومكاتب النقطة الرابعة والمجلس البريطانـــي في عمان بالحجارة ٠ والملاحظ ان النشاط الفدائي الفلسطيني استمر منطلقا من الاردن حتى عام ١٩٥٦ ، ثم انقطع الى أن تجدد مرة أخرى ، عام ١٩٦٥ ٠ ففي عامي ٥٤ و ١٩٥٥ أصـــدرت المحاكم الاردنية احكاما بالسجن على ٩٩٧ فلسطينيا بتهمة « التسلل » الى فلسطين المحتلة ، بالاضافة الى عدد كبير آخر صدرت ضدهم احكام مع وقف التنفيذ بالتهمة نفسها ٠ وطرد بعض المخاتير من وظائفهم ، وعوقبوا لانهم امتنعوا عن التعاون مع الحكومة الاردنية والادلاء بمعلومات عن «المتسللين» ٠

وابتداء من ١٩٥٤ ، أخذت مختلف القـــوى الاستعمارية ، والموالية للاستعمار ، تضغط لضم الاردن الى مشاريـــع الاحلاف المعروفة ٠ فأعلنت « النقطة الرابعة» منح حكومة عمان عشرة ملايين دولار ، وزار الملك سعود العاصمة الاردنية ، في حزيران (يونيو)، فاستقبل بالمظاهرات المعادية « لامريـــكا الصهيونية وبريطانيـــا

والحكومة الاردنية» · ورفض مجلس النواب اعطاء الملك حسين حق حل المجلسين (النواب والاعيان) ، ثـــم تهيأ المجلس لاسقاط وزارة أبي الهدى ، فعاجله حسين بقرار حله (حزيران ١٩٥٤) ، وبتعطيل الصحف ، وبشن حملة اعتقالات واسعة ضـد العناصر الوطنية واليسارية · وأجريت الانتخابات النيابية في ظل الارهاب الذي لم يمنع الجماهير من التحرك في معظم المدن ، وخاصة فـي عمان ، حيث اشعلت النار في مكتبة وكالة الاستعلامات الامريكية · ونجحت القوى الوطنية في ايصال العديد من العناصر الديمقراطية والمعادية للاستعمار الى البرلمان ·

وفي عام ١٩٥٤ ، أيضا ، بدأ الحزب الشيوعي الاردني فـي تكوين جبهة وطنية ، ضمت الشيوعيين والديمقراطيين المنحدرين من أصول بورجوازية صغيرة ، بالاضافة الى ممثلـــي البورجوازية الوطنية التقدميين · وأعلنت كل الاحزاب المشاركة في تلك الجبهة ذات الاهداف الاشتراكية ؛ وكان هذا انعكاسا لمزاج الجماهير التي رأت ان التقدم الاجتماعي هو الوسيلة الوحيدة لضمان الاستقلال الحقيقي · وأدت الاعمال المشتركة التي قامت بها أحزاب المعارضة الى اسقاط الحكومة الرجعية في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٥ · وان كانت القوى التقدمية قد عجزت، بسبب نقص خبرتها في النضال السياسي وتبعثرها ، عن أن تستفيد من التغيير الذي حدث · وقد استغلت الرجعية الاردنية ، المسنودة من الامبريالية ، والامبريالية الامريكية في المقام الاول ، كل ذلك ، فقامت باسقاط الحكم الوطني في الاردن في ربيع عام ١٩٥٧ ، ثم استغلت هذا التمزق الذي تلا انقسام القوى الوطنية عام ١٩٥٩ ، فشنت هجوما شرسا وشاملا على الشيوعيين والديمقراطيين في الاردن (٢٢) ·

وكان جلال بايار ـ رئيس الجمهورية التركية ـ قد زار الاردن في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٥ ، لعرض شروط الانضمام الـى

حلف بغداد على الحكومة الاردنية · وتبعه الجنـرال البريطاني ، تمبلر ، فزار عمان في الشهر التالي ، حيث قابلته العاصمة الاردنية بالاضراب العام والمظاهرات العنيفة ، وامتدت شرارتها الى الخليل وأريحا ، فاستقال سعيد المفتي ، وخلفه هزاع المجالي في رئاسة الوزراء ، الا ان المظاهرات اجبرته هو الآخر على تقديم استقالته · واستمرت المظاهرات ، وأحرقت مركز المعونة الفنية الامريكية في عمان (٧ ـ ١ ـ ٥٦) وطالبت بطرد جلوب، مما اضطر الملك حسين الى تنحيته في آذار (مارس) ١٩٥٦ · وفشل مشروع ضم الاردن الى حلف بغداد · وكان للجماهير الفلسطينية الفضل الاكبر فـي احراز هذا الانتصار التاريخي ، الذي كان المقدمة لوصول الوطنيين الى الحكم في خريف ١٩٥٦ ·

وقد شكلت وزارة النابلسي الوطنية في تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٥٦ ، بعد ان حصلت الاحزاب الوطنية الاردنية على الاغلبية في الانتخابات النيابية · وقامت هذه الوزارة باجـــراء العديد من الاعمال الوطنية (الغاء المعاهدة مع انجلترا ، عقـــد التحالف العسكري مع مصر ، الغاء القوانين الرجعية المقيدة للحريات الخ ···) · وان كانت قد تقدمت بطلب الى الولايات المتحدة للحصول على معونة تعوض الاردن عن المعونة البريطانية (١٧ ـ ١ ـ٥٧)، ورفض الامريكيون الطلب · كما تركت الوزارة الملك حسين يوجـه نداءاته المتتالية ضد القوى اليسارية ، والشرطة تنفـــذ تعليماته بمصادرة الصحف التقدمية والقبض على العناصر اليسارية · ولم يقف حزب النابلسي ـ الوطني الاشتراكي ـ بحزم ضد استفزازات جناحه اليميني بزعامة أنور الخطيب للاحزاب التقدمية واتصالاته المشبوهة بالقصر · وقد ترتب على ذلك عزل الوزارة عن الجماهير الشعبية ، ونجاح الملك في اقالتها (نيسان ١٩٥٧) ؛ وقد تبع هذا اعلان الاحكام العرفية وتعطيل البرلمان وحل الاحزاب الوطنية ، والقبض على الالوف ، واعدام العشرات ؛ وتعاونت عناصر الاخوان

المسلمين وحزب التحرير الاسلامي والقوميين السوريين في اغتيال اليساريين والتقدميين · واسفر الانقلاب عن قبول الاردن مشروع أيزنهاور وتعزيز روابطه بالعجلة الاستعمارية الامريكية ·

ودللت قصر الفترة التي عاشتها وزارة النابلسي الوطنية ، وسرعة هزيمتها على يد الرجعية الاردنية العميلة ، دللت على ضعف البورجوازية الوطنية الفلسطينية ، وعجزها عن الاستمرار في قيادة الحركة الشعبية ، بل وعدم رغبتها – أو ترددها – في الثورة على النظام الهاشمي · ومنذ هذه الهزيمة اخذت تتكون قيادة البورجوازية الصغيرة للحركة الوطنية الفلسطينية ، تلك القيادة التي تبلورت من خلال النضال الدامي ضد العائلة الهاشمية· ولعب الشيوعيون والبعثيون والقوميون العرب ، الدور الاساسي في هذا النضال وتحمل أعضاؤهم تضحيات هائلة ·

واستطاع الملك حسين ان يضم الاردن الى حلف بغداد ، بشكل غير مباشر ، عن طريق تكوين الاتحاد الهاشمي الاردني – العراقي، في الرابع عشر من شباط (فبراير) ١٩٥٨ · وفي اليوم نفسه أعلن الملك حسين « تعهده باستعادة الحق العربي الذي اغتصبته اسرائيل في حرب ١٩٤٨ » · وهكذا كان الادعاء بحماية القضية الفلسطينية غطاء جيدا لخيانات بعض القادة العرب ·

وعلى أي حال ، لم يدم حلف بغداد طويلا ، اذ تحررت بغداد نفسها بثورة ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨ ، ولم ينقذ حكام عمان من الحركة الوطنية الاردنية سوى حراب الجنود البريطانيين ومظاهرات الطائرات الحربية والاسطول السادس الامريكي ، التي أتت جميعها بناء على طلب الملك حسين ، وبعد ان سمحت تل ابيب باستخدام المجال الجوي الاسرائيلي لنقل القوات البريطانية الى الاراضي الاردنية · وكان طبيعيا ان يرتبط هذا كله بالحملات المسعورة ضد الحزب الشيوعي الاردني · وانتشر في هذه الفترة اسلوب تكوين

المجموعات السرية المسلحة ضد الحزب الشيوعي الاردني · وانتشر في هـذه الفترة اسلوب تكوين المجمـوعات السرية المسلحـة بين اللاجئين والجيش ، بهدف مقاومة السياسة الاردنية ، واغتيال الملك والقيام بأنقلاب عسكري يطيح بالنظام الهاشمي ·

وفي الوقت الذي كانت فيه الطبقة الحاكمة الاردنية تتلقـى المعونات من انجلترا وامريكا ، وتسيطر علـى الشعبين الاردني والفلسطيني بالحديد والنار ، لم تجد بدا من مقاطعة بعض الشركات الاجنبية ، لقيامها بالتجارة مع اسرائيل (١٨ ـ ١٢ ـ ١٩٥٨) ؛ اذ ان هذه المقاطعة كانت ثمنا بخسا لذر الرماد في عيون العرب ·

أما الحقيقة ، فهي ان الطبقة الحاكمة الاردنيـة قاومت ، بعنف وشراسة ، كل محاولة لان يقـرر الفلسطينيون مصيرهم بأنفسهم · ففي الثاني عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٦٠ ، مثلا، أعلن هزاع المجالي أمام مجلس النواب الاردني انه لم تعد هناك هيئة تستطيع الادعاء بالتحدث عـن الفلسطينيين ، لان الحكومة الاردنية تمثل أغلبيتهم الساحقة · وبينما كانت المناقشات تجري في الجامعة العربية حول تمثيل الفلسطينيين ، انتقد الملـك حسين الزعماء العرب « لنظرتهم غير المسؤولة » الى المشكلة الفلسطينية ، ولانهم يستعملون اللاجئين « كقطيـع شطرنـج لتحقيق اهدافهم السياسية الانانية » (١٧ ـ ١ ـ ١٩٦٠) · وأكد هزاع المجالـي المعنى نفسه ، في خطاب آخر له أمام مجلس النواب (٢٣ آذار) قائلا أن انشاء كيان فلسطيني خاص ، يعني « تصفية القضية الفلسطينية والتهرب من المسؤولية » ··· وانه لن يقبل ـ أبدا ـ الفكرة القائلة بأن استعادة الحقوق ودفع الخطر همـا مسؤولية الفلسطينيين أنفسهم · وعقدت العناصر الموالية للملك مؤتمرا في الخليل ، في ١٦ نيسان (ابريـل) ١٩٦٠ ، استنكرت فيـه « بدعة الكيان الفلسطيني » · وهكذا ، ففي حين حاولت أغلبية الدول العربيـة استيعاب الحركة القومية الفلسطينية المتجددة في اوائل الستينات،

لم يستطع النظام الاردني الا مجابهتها بالرفض التام ، لان أي بذرة لفكرة تقول بكيان فلسطيني، كانت تعني – في ذلك الوقت – انفصال فلسطين عن شرق الاردن · وعلى كل حال،فمنذ عام ١٩٦٠ بدأت بوادر الصدام تظهر بين الدوائر الاردنية الحاكمة وبين الشعب الفلسطيني، لا باعتباره الجناح المتقدم لسكان الاردن فقط ، بل لكونه ذا قومية خاصة ، تسعى الى تقرير مصيرها · وسيكون هذا الصدام السمة البارزة في تاريخ الاردن ، في المرحلة التالية وحتى مذبحة أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ ·

ونمت شيئا فشيئا العناصر المتضاربة ، التـــي شكلت أزمة النظام الاردني في نهاية الفترة،في الوقت الذي كان النظام الناصري يصل فيه الى اوج صعـــوده : فامريكا تعطي الاردن ٥ر٥٦ مليون دولار ، في عـام ١٩٦٠ ، مشترطة ان يستورد الاردن بنصف هـذه القيمة بضائع امريكية · وتدفع شركة التابلاين أربعة ملايين دولار سنويا للحكومة الاردنية ، ابتداء من آذار (مارس) ١٩٦٢ ، كما تبدأ المانيا الغربية في منح المعونات المالية للاردن (٢٠٠ مليون مارك للبرنامج الصناعي في شباط ١٩٦٠) ؛ ويتسع نشاط الشركات البريطانية والامريكية الكبرى في بناء ميناء العقبة · وتزداد مقاومة الشعب الاردني ، فترد الحكومة الاردنية بمزيد من الارهاب ، ومن اعتقال الشيوعيين والبعثيين لوقوفهم في طليعة النضال مـن أجل الاستقلال والديمقراطية ، ولنجاح الحزب الشيوعي الاردني فـي الارتباط الوثيق بالطبقة العاملة وتنظيماتها ، التي أيدت مقاطعـة السفن الامريكية اثر حادث السفينة المصرية « كليوبترا » في نيسان (ابريل) ١٩٦٠ ، والسفن والطائرات الفرنسية اثناء حرب استقلال الجزائر في كانون الثاني (يناير) ١٩٦١ · غير ان الحركة الشعبية الاردنية لم تكن محصورة في هذين الحزبين ، بـل اخذت اشكالا مختلفة ، منها الاغتيالات السياسية الفردية (مثل قتل هزاع المجالي وعشرة آخرين يوم ٢٩–٨–١٩٦٠) ، ومحاولات الانقلاب والمقاومة

العسكرية (علي أبو نوار يؤسس المجلس الاردني لقيادة الثورة في المنفى في نيسان ١٩٦٣ ـ مؤامرة اغتيال الملك حسين في آب المؤيدة للنظام الناصري والمطالبة بالوحدة مع مصر (نيسان ٦١ و ١٩٦٢) ، وخصوصا المظاهرات والاضرابات الجماهيرية الواسعة المؤيدة للنظام الناصري والمطالبة بالوحدة مع مصر (نيسان ١٩٦١ـ ١٩٦٢) ، وهي الحركات الواسعة التي اضطرت النظام الهاشمي ـ أكثر من مرة ـ الى التراجع واجراء الانتخابات والاعتراف بالاحزاب وبالنظام الجمهوري في اليمن ، ثم على اقامة العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي (آب ١٩٦٣) ٠ وان ظلت الدوائر الحاكمة الاردنية على موقفها القديم من القضية الفلسطينية : الدفاع الكلامي عن الحق الفلسطيني والحشد والتعبئة اللفظية ، مع الرفض الحاسم والقاطع لان يكون للفلسطينين أنفسهم اي دور في هذا ٠

هوامش

(١) M. ALAMI: The Lessons of Palestine, The Middle East Journal, Vol. 3, No. 4, Oct. 1949, P.P. 374 - 375.

(٢) الانباء (اسرائيلية) ، ١٠ ـ ٥ ـ ١٩٧٠ ٠

(٣) كوهين ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٨٩٧ ٠

(٤) احمد صادق سعد ، تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية ، الكاتب (القاهرة) ، العدد ١٤٦ ، مايو (أيار) ١٩٧٣ ، ص ٩١ ٠

(٥) جون باجوت جلوب ، جندي مع العرب ، ترجمة عفيف حسن الصمدي، دار النشر للجامعيين د٠ت٠ ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٦١ ٠

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٦٣ ٠

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٦٤ ٠

(٨) المصدر نفسه ، ص ١٩٢ ٠

(٩) المصدر نفسه ، ص ١٧٨ ـ ١٨١ ٠

(١٠) رودنسون ، مصدر سبق ذكره (الطبعة العربية) ، ص ٥٠ ـ ٥١ ٠

(١١) The Middle East Journal, Vol. 3, No. 2, April 1942,P.182.

(١٢) عدلي حشاد ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٠٤ و ١٠٩ ٠

(١٣) صبري جريس ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٩ ، ٩٨ ٠

(١٤ علي محمد علي ، في داخل اسرائيل ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، د٠ت٠ ، ص ١٦٥ ٠

(١٥) G. STEVENS: Arab Refugees; 1948 - 1952, The Middle East Journal, Vol. 6, No. 3, Summer 1952, P. 291.

(١٦) F.C. BRUHMS: A study of Arab refugees ottitudes, The Middle East Journal, Vol. 9, No. 2, Spring 1955, P.P.130-132.

(١٧) ثروت كاتبة ، تحويل العمل الفدائي الى قضية جماهيرية ، الطليعة (القاهرية) ، العدد السادس ، السنة الخامسة ، يونيو (حزيران) ، ١٩٦٩ ، ص ٦٤ ٠

(١٨) الحزب الشيوعي الاردني ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥ و ٧ ٠

(١٩) سالم خليل ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٤ ٠

(٢٠) E. WRIGHT: Abdallah's Jordan; 1947 - 1952, The Middle East Journal. Vol. 5, No. 6. Autumn 1953. P.P. 445 - 446.

(٢١) G. SPARROW: Op. Cit., P. 22 - Also, E. WRIGHT:Op. Cit., P.P. 458 - 459.

(٢٢) سالم خليل ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٥ ـ ٤٦ ٠

الفصل الثالث

الشخصية الفلسطينية تؤكد نفسها

١٩٦٤ ـ ١٩٧٠

تطورت الاوضاع الدولية ، منـذ منتصف الستينات ، بحيث اصبح المعسكر الاشتراكي هو الذي يقرر مجرى الامور الدوليـة ، بشكل عام ، ويحسمها · وبدأت المرحلة ـ على النطـاق العربي ـ بمد ثوري قادتـــه البورجوازية الصغيرة (الاصـــلاح الزراعي والتأميمات في مصر) التي ما لبثت سلبياتها ان ظهرت في هزيمة ١٩٦٧ · ومع ذلك ، تميزت هذه المرحلة بمواجهة اشد حدة وعمقـا بين الحركة الوطنية العربية وبين الاستعمار العالمي ، وعـلى رأسه امريكا ، كما تميزت بصلات اوثق واعمق بين تلك الحركة وبيـن المعسكر الاشتراكي والاحزاب الشيوعية والعمالية في العالم·

اثرت الظروف الجديدة تلك على الحركة الوطنية الفلسطينية، وسهلت مولد قيادة جديدة لها ـ هي البورجوازية الصغيرة بأجنحتها المختلفة · غير ان مولدها حدث بترحيل زمني عن التطورات المحيطة بها، اي عندما كانت الازمة الداخلية الكامنة قد امسكت بتلك القيادة على نطاق الوطن العربي · وترتب على هذه الاوضاع بروز عراقيل جديدة في وجه القضية الفلسطينية ، ومحاصرة متكررة للحـــركة

الوطنية الفلسطينية ، تعاونت فيها بعض الانظمة الوطنية العربية مع انظمة عربية عميلة اخرى ٠

وصعدت « حركة التحرير الوطني الفلسطيني » (فتح) في نفس الوقت الذي ظهرت فيه « منظمة التحرير الفلسطينية » الى الوجود على ايدي الجامعة العربية عام ١٩٦٤ ٠ ولعل الصراع بين الكتلة العربية التي كانت تقودها مصر وبين تلك التي ترأسها السعودية، لعب دورا في تلك الظروف ٠ ولا شك ان الاسلوب المقاتل لفتح ، وتأكيدها على الشخصية الفلسطينية المستقلة عن الانظمة العربية ، ولهجة فتح الثورية والتقدمية ، كانت بلورة للمرحلة الجديدة ٠ لقد تركت تلك القيادة المنطق التقليدي العربي ، وضغطت على اهمية التنظيم ، والعقلانية ، والعلم ، والتدريب، واخذت تدرس العبرية ، والفن العسكري الاسرائيلي ، حتى تفهم العدو وتقيمه تقييما اقرب الى الواقع ، كما حددت انحيازها الى المعسكر المعادي للاستعمار (١) ٠

وكان صعود البورجوازية الصغيرة الى مركز القيادة في الحركة الوطنية الفلسطينية ، نتاجا طبيعيا لهزال البورجوازية الوطنية الكمي والكيفي (حجمها وطاقتها الاقتصادية) ، والفشل السريع الذي منيت به قيادتها في الاردن من جهة ، ومن جهة اخرى، فان ضعف الطبقة العاملة النسبي ، والطبيعة الاصيلة الفلاحية والبورجوازية الصغيرة للغالبية الساحقة من الفلسطينيين واللاجئين اوجدا الارضية الاجتماعية اللازمة لظهور تلك القيادة الجديدة ، التي سرعان ما جمعت حولها اعدادا كبيرة من الافراد ٠ فقبل حرب حزيران (يونيو) لم تكن عضوية فتح تزيد عن بضعة مئات، ولكنها زادت عند معركة « الكرامة » (اذار ١٩٦٨) الى حوالي ٢٠٠٠ ، ثم قفزت الى ما يقرب من ١٥٠٠٠ في الشهور الثلاثة التي تلت المعركة المذكورة ، الى ان ارتفعت اعداد الفدائيين الفلسطينيين الى

٢٥٠٠٠ رجـــل مسلح بعد ذلك (٢) · وساهم الفلسطينيون – من مختلف الطبقات الاجتماعية – في مؤازرة المنظمات الفدائية ماليـا ومعنويا ، بصورة تناقض تماما تفتت النشاط الوطني الفلسطيني من قبل · وليس من شك في ان نجاح العمليات الفدائية وتصاعدها حتى عام ١٩٧٠، كان عنصرا فعالا في جذب عواطف الجماهير الفلسطينية خاصة ، والعربية عامة ، نحو المنظمات الفدائية ·

ومن المعروف ان فكرة « فتح » كانت قد نبتت في اذهان بعض الشبان الوطنيين في اعقاب العدوان الثلاثي ، وخرجت الفكرة الى الوجود في الكويت حيث الحرية النسبية ، وحين توفرت لاصحـاب الفكرة الاموال اللازمـة التي جمعوها من عملهم في البلد المذكور · وسارعت سوريا الى احتضان « فتح » ، كما بادرت الصين الشعبية الى منحها التأييد السياسي والمادي · وترى فتح ان فلسطين تؤلف جزءا من الوطن العربي، ولن تكون دولة اجنبية او غربية في وسطه· وعند قيامها رفضت فتح « الافتراض القائل بأن اليهود الذين عاشوا قبل ١٩٤٨ او قبل ١٩١٤ والمنحدرين منهم سوف يحظون بالقبول »· كما اشارت المنظمـــة في وثائقها المبكرة الى أنـــه « اثناء عملية الاستيقاظ حطم المشردون اغلالهم وطردوا رجالات البوليس السري، وعملاءهم ، وسائر المستغلين ، لكي يقيموا ادارة ذاتية على اسس ديمقراطية صحيحة » · واصرت فتح عـــلى « ان تتجنب المعارك السياسية والفكرية مع القوى الاخرى ، مهما كان السبب ، لان هذه المعارك ستؤثر على سرعة نموها » · · واضافت « ان توجيه الجزء الاكبر من نشاطها الى العمـــل السياسي – في مراحلها الاولى ، سيفقدها قوة الاستمرار كحركة ثورية ، وسيحيلها بالنتيجـــة الى هيئة او منظمة سياسية مناورة » · ورأت الحركة « ان اسرائيـــل بحكم طبيعة تكوينها ، تمثـــل مجتمعا منغلقا وعنصريا ، مرتبطا بالامبريالية ، وهي بحكم هذا التكوين ، لا يمكن ان تحدث القـوى التقدمية في داخلهـــا اي تغيير جذري يلغي طبيعتهـــا المرتبطة

بالامبريالية ، ولذلك فان هدف الثورة الفلسطينية هو تصفية الكيان سياسيا وعسكريا واجتماعيا ونقابيـــا وثقافيا ، وتحرير فلسطين كاملة » · ورفضت فتح ضرب المدنيين الاسرائيليين عـلى اعتبار « ان أي عمل تقوم به فتح ، يؤدي بالتأثير او المساس بالمـدنيين ، يكون له ردة فعل سيئة على الرأي العام العالمي » (٣) ·

اما « قوات التحرير الشعبية » فقد انبثقت عن جيش التحـرير الفلسطيني في اعقاب هزيمة ١٩٦٧ ، وهي بمثابة جناح العصابات في الجيش المذكور · وقد رأت هذه القوات في مطبوعاتها ان «اليهود الذين كانوا يقيمون اقامـــة عادية في فلسطين حتى بـــدء الغزو الصهيوني لها يعتبرون فلسطينيين » وبالنسبة لعـــلاقاتها بالانظمة العربية المختلفة رأت قوات التحرير الشعبية ان « تتعاون منظمـــة التحرير الفلسطينية مع جميع الدول العربية ، كل حسب امكانياتها، وتلتزم بالحياد فيما بينها في ضوء مستلزمات معركة التحرير، وعلى اساس ذلك ، ولا تتدخل في الشؤون الداخلية لاية دولة عربية»(٤) ·

وانبثقت عن الفرع الفلسطيني بحزب البعث بسوريا ، عـام ١٩٦٦ ، « طلائع حرب التحرير الشعبية » (الصاعقة) ، وهي تقول بأنها تؤمن بالاشتراكية العلمية ، وترى أن « الصراع الطبقي فـي وطننا لم يتبلور نتيجة انقسام حاد في المجتمع ··· وانما برز نتيجة عجز طبقات مهترئة اقطاعية وبورجوازية عن قيادة وحماية ثروات الوطن العربي من الغزو الاستعماري ، وعن عجزها في تطـــوير المؤسسات المتخلفة القديمة لانقاذ الجماهير العربية الواسعة مـن الجوع والفقر» · وتضع الصاعقة البورجوازية الفلسطينية وقرينتها الاردنية في ســـلة واحدة ، بل وترى « ان الطبيعـــة اللاوطنية للبورجوازية الفلسطينية- الاردنية، شأنها شأن سائر البورجوازيات العربية، قد جعلت منها حليفا مباشرا لقوى الاستعمار والامبريالية، وبالتالي للحركة الصهيونية » · وترى الصاعقة « ان حركة التحرر

الوطني الفلسطينية والعربيـــة ترتبط ارتباطا عضويا ومصيريا بالبلدان الاشتراكية ، وبكل حركات التحرر الوطني في العالم ضد العدو المشترك : الاستعمار والامبريالية » · ولا تخـــلو تحليلات الصاعقة ولا ادبياتها من النظرة الطبقية للمسألة الوطنية ، اذ تؤكد « ان العلاقة بين القضية الوطنية في التحرير وبين مطالب الطبقـة الكادحة هي علاقة اساسية» ·ولدى انشاء الحزب الشيوعي الاردني « قوات الانصار » الفدائية ، رحبت الصاعقة بالمنظمة الجديدة ، وان تحفظت بأن تلك القـــوات « لم تنطلق من منطلق التحرير الشامل لفلسطين ، مما يجعلهـــا تسير في خط يختلف عن خط سير باقي فصائل المقاومة» · ومع ذلك لا تتخلى الصاعقة عن نظرتها الوحدوية القومية وتؤكـــد ، انها وان كانت « تجد مرحليـــا ضرورة ابراز الشخصية الفلسطينية امام المجتمع الدولي ، لاسباب معينة ، فانها تقف بحزم ضد جميع النظريات الاقليمية ، ولا تميز مطلقا ليس فقط بين فلسطيني واردني ، بل بين عربي وعربي ، مهما اختلفت الاقطار التي ينتمون اليها · ولذلك فالطلائع تؤكد على الوحدة الوطنية على صعيد الساحة الفلسطينية والساحة العربية ككل» · وتبرر الصاعقة للاتحاد السوفياتي موقفه من القضية الفلسطينية وترجيبه بالحـل السلمي ، وترجـــع ذلك الى « طبيعة الظروف الدوليـــة واحتمال التصادم بين الدولتين العملاقتين ، مما سيجر الكوارث على الجنس البشري ··· وبالطبع فان ذلك ليس في صالح حركات التحـــرر في العالم » (٥) ·

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ ، اندمجـــت « جبهة التحرير الفلسطينية » و «شباب الثأر» (الجناح العسكري للقوميين العرب) و « ابطال العودة » في منظمة فدائية جديدة اطلقوا عليها اسم « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » ، الا ان التناقضات سرعان ما اعملت في هـــذه الجبهة تفتيتا وتقسيما ؛ ففي تشـــرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٨ ، انشق احمـــد جبريل ، زعيم جبهـــة التحرير

الفلسطينية ، عن الجبهة الشعبية ، مكونا « الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة » وفي الحادي والعشرين من شباط (فبراير) ١٩٦٩ ، انشق الجناح اليساري من الجبهة الشعبية مكونا « الجبهة الشعبية الديمقراطية » · وادانت الجبهة الشعبية الاحزاب الشيوعية العربية ووصمتها بالفشل، وكان ذلك طبيعيا لانها كانت ترى في نفسها البديل لتلك الاحزاب ! ورأت الجبهة ان مضمون شعار الدولة الفلسطينية الديمقراطية هو في « توفير حل ديمقراطي للمسألة اليهودية في فلسطين ؛ اي ان كافة المواطنين اليهود يجب ان يتمتعوا في فلسطين المحررة ـ المتحدة ، عضويا بالوطن العربي والامة العربية ـ بكافة حقوقهم كمواطنين دون تمييز » وامتدحت الجبهة الصين الشعبية ، لتبنيها نفس الاستراتيجية التحررية التي تعتمدها شعوب الدول النامية لمواجهة الاستعمار · وترى الجبهة ان الاتحاد السوفياتي يتبنى « موقفا يقتصر على منع اسرائيل من التوسع والعدوان ، دون التعرض لاساس وجودها » (٦) ·

وبعد انسلاخها عن الجبهة الشعبية ، عارضت « الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة » شعار دولة فلسطين الديمقراطية ، لانه ليس نابعا من تنظيمات منبثقة عن الشعب الفلسطيني (٧) ·

وفي اوائل حزيران (يونيو) ١٩٦٩ اندمجت اغلبية « المنظمة الشعبية لتحرير فلسطين » و « عصبة اليسار الثوري » بالجبهة الشعبية الديمقراطية · واتسم نشاط الجبهة الديمقراطية بالعمق السياسي والطبقي في آن واحد · واسهمت اسهاما ملموسا في النشاط الايديولوجي والسياسي لمجمل حركة المقاومة ، فقد اكدت ان « النضال ضد الامبريالية هو اساسا نضال طبقي ، فالامبريالية تحكم سيطرتها وهيمنتها على المنطقة العربية من خلال تحالفها مع الاقليات العربية الحاكمة في الانظمة الرجعية ، ومن خلال عجز انظمة بورجوازية الدولة عن شن نضال حازم ومنهجي ومتماسك ضد

الامبريالية » · وترى الجبهة الديمقراطية « ان انتصار القضية الفلسطينية يعتمد على خلق اداة ثورية عربية موحدة ، ذات استراتيجية متناسقة موحدة ، تخوض نضالا متكاملا على صعيد المنطقة كلها · ولكن خلق هذه الاداة يفترض مسبقا وجود القوى الطبقية القادرة على خوض النضال الطبقي المعادي للامبريالية · ولكن معضلة الثورة العربية ككل ، وبضمنها المقاومة الفلسطينية ، تكمن في ان هذه القوى بالكاد موجودة · ذلك ان السقوط التاريخي للقومية البورجوازية الصغيرة ··· لم يترافق مع بروز طبقة جديدة على المسرح السياسي العربي · ومن هنا ، فان المهمة المركزية للثوريين الجدد هي بناء القوى الشعبية من العمال والفلاحين والشرائح الدنيا من البورجوازية الصغيرة ، وخوض النضال بقيادة ايديولوجية الطبقة العاملة وبرامجها وشعاراتها ، عندئذ سيتفرز اواصر التحالف العظيم وسيمكن بناء الاداة الثورية العربية الواحدة » · اما التنظيم الثوري فترى الجبهة « ان طبيعة التركيب الطبقي للشعب الاردني ـ الفلسطيني ، تتميز بالضعف النسبي للطبقة العاملة··· وتتكون الغالبية الساحقة من الجماهير الكادحة، من الفلاحين والبورجوازية الصغيرة والبروليتاريا الرثة ··· ولذلك لا بد من المرور بمرحلة انتقالية طويلة نسبيا ، يجري خلالها المزج بين الاولويات على صعيد التنظيم الداخلي ، بشكل يمهد لتوفير الشروط الذاتية الضرورية لبناء الحزب ، كنواة صلبة متماسكة داخل تنظيم الجبهة ، ويفسح ـ بالتالي ـ لتكثيف الطبيعة الجبهوية لهذا التنظيم » · وتحدثت الجبهة الديمقراطية عن اتكالية الجماهير الفلسطينية وحاولت تفسيرها ؛ فقالت ان « حركة المقاومة، بتكوينها، قد نمت في صفوف الجماهير اتكالية من نوع جديد ، هي الاتكالية على المنظمات الفدائية ، التي لا زالت قطاعات هامة من الجماهير تتطلع اليها لانجاز مهمة التحرير ، دون مساهمة جماهيرية واسعة» · وبالرغم من ان الجبهة الديمقراطية لم تحبذ عمليات خطف الطائرات

التي كانت تقوم بها الجبهة الشعبية ، الا انها كادت تتخذ نفس موقف الجبهة الشعبية من الاتحاد السوفياتي ، فرأت « ان سياسة الاتحاد السوفياتي التي تنبع ـ عالميا ـ من سياسة التعايش السلمي، لا تقدم على ممارسة سياسة اممية بروليتارية ثورية في مكافحة الامبريالية واشعال الحرائق الثورية ٠٠٠ وهي ـ في التحليل الاخير ـ مع كافة القوى المعادية للامبريالية » ٠ ولا تتخذ الجبهة الديمقراطية الموقف المحبذ للموقف الصيني شأن الجبهة الشعبية ، بل ترى « ان المواقف النظرية الصحيحة للموقف الصيني ٠٠٠ لا تأخذ طريقها الى الترجمة العملية الملموسة » (٨) ٠

وفي اوائل نيسان (ابريل) ١٩٦٩ انبثقت عن حزب البعث في العراق منظمة فدائية جديدة هي « جبهة التحرير العربية » ، ومنذ قيامها رأت في شعار دولة فلسطين الديمقراطية « شعارا للتسوية بمعزل عن انتصار الثورة العربية الشاملة ، ولا يمكن ان تكون هذه الدولة تقدمية واشتراكية ، ويعبر هذا الشعار عن العقلية القطرية الفلسطينية » ، ولدى قيام « قوات الانصار » كانت جبهة التحرير العربية ضمن الفصائل الفدائية القليلة التي رحبت بها (٩) ٠

وبعد الاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية عام ١٩٦٧ ، ومن بعض قطاعات القوميين العرب ، تشكلت « جبهة النضال الشعبي الفلسطيني » ، وهي ترى ان طبقة البورجوازية الكبيرة العربية ـ او الطبقات الاقطاعية والرأسمالية الوطنية ـ طبقة اصطنعها الاستعمار ، اما البورجوازية الصغيرة فهي ـ في رأي جبهة النضال ـ حليف للثورة ٠ وترى الجبهة المذكورة ان قوى الشعب العامل ـ فلاحين وعمال ومثقفين وثوريين فقراء ـ هي الطبقة الثورية الراغبة في التغيير ٠ وتؤمن جبهة النضال الشعبي بالكفاح الاشتراكي ، وترى في الوجود الطبقي في كل امة حقيقة واقعة ٠ كما ترى ان توزيع الانتاج والثروة في وطننا ـ تحت ظل النظام الرأسمالي ـ

توزيع ظالم ، ويجب اعادة التوزيع بشكل عادل وبحيث يصبح ملكا لجميع الشعب (١٠) ٠

وفي اعقاب هزيمة ١٩٦٧ نشأت بين فلسطينيي العراق منظمة لمؤازرة المقاومة الفلسطينية ، الا انه سرعان ما تحولت الى منظمة اخرى ، اضيفت الى عداد المنظمات الفلسطينية ، وعرفت باسم « الهيئة العاملة لتحرير فلسطين » ، وقد رأت ان المسألة اليهودية لا تحل الا باقناع اليهود بالانصهار مع الشعوب المضيفة ٠ واشارت هذه المنظمة ، البالغة الصغر ، انها تعمل على ازالة الكيان الصهيوني وليس لابادة اليهود ٠ واشارت الهيئة العاملة الى ان فلسطين لن تتسع للشعب العربي الفلسطيني والطائفة اليهودية ، واشارت في مطبوعاتها ، الى ان حل المشكلة اليهودية يكون في تقديم التسهيلات الكافية لترحيل اليهود الذين هاجروا الى فلسطين بعد انتهاء الانتداب الى اوطانهم الاصلية او اية بلاد اخرى ٠ في حين يمنح اليهود الذين استوطنوا فلسطين قبل نهاية الانتداب حقوق المواطنية الكاملة ٠ وتشكك الهيئة في موقف الاتحاد السوفياتي من القضية الفلسطينية ، وتطلب الى المقاومة الفلسطينية ضرورة « العمل على تعقيد العلاقات السوفياتية ـ الامريكية، للحيلولة دون توصلهما الى مخطط استراتيجي موحد » ٠ وتناشد الهيئة العاملة المقاومة الفلسطينية الى قبول «اليد المخلصة الممتدة من الصين»(١١)، وان كان هذا لا يعني ان هذه المنظمة تتبنى الماركسية ، او تتحيز للجانب الصيني في الصراع الايديولوجي الناشب بين الحزبين الشيوعيين في الصين والاتحاد السوفياتي ٠ وقد انضمت المنظمة المذكورة الى فتح في شباط (فبراير) ١٩٧١ ٠

ولم تستطع « الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة » المحافظة على وحدتها اذ سرعان ما خرج منها احد قادتها ، في اوائل آب (اغسطس) ١٩٦٩ وهو احمد زعرور ، مشكلا فصيلا جديدا حمل

اسم « منظمة فلسطين العربية » ورأت هذه المنظمة في « تدخل الدول العربية امر طبيعي ، لوجود الفلسطينيين على ارضهـا ولمجاورتها لفلسطين ، ولكن المقاومة تطالب بتحديد التدخل ونوعه · فالشعار الذي طرحته بعدم التدخل في الشؤون العربية ، ترك المجال واسعا لبعض الدول ان لا تستعد للمعركة او بأن تحصرها عـلى شريط معين من الحدود » · وعارضت المنظمة شعار الدولة الفلسطينيـة الديمقراطية لانه ـ حسب رأيهـا ـ « يتعارض مع ابسط اهداف المقاتلين الثوريين : اعادة راية العروبة على فلسطين » · وطالبت منظمة فلسطين العربية بضرورة «صياغة نظرية علمية لحل تناقضات العالم الثالث ، مستنيرة بالفكر الماركسي اللينيني ، متجاوزة اياه ، ومتممة للمسائل التي لم يطرحها بشكـل سليم او متكامل » (١٢) · وبالرغم من هذا الطموح والتعالي على الماركسية ـ اللينينية ، الا ان منظمة فلسطين العربية لم تساهم ـ مساهمة تستحق التسجيـل ـ في حل مشاكل العالم الثالث ، بل انتهت بان انضمت الى فتح مـع شقيقتها الهيئة العاملة :

وفي عام ١٩٦٤ ، انسلخت مجموعة صغيرة عـن الحـزب الشيوعي الاردني ، وشكلت ما عرف ب « المنظمة الشعبية لتحرير فلسطين » ، وانضمت اغلبيتها الى الجبهة الديمقراطية ، كما رأينا، وبقيت الاقلية مستمرة في تنظيمها · وتقول المنظمة تلك انها تسترشد بالماركسية ـ اللينينية ، وقد عرف عنها ميلها للخط الصيني · وهي ترى ان الجبهة الشعبية الديمقراطية ترفع شعار الماركسية اللينينية بينما تمارس ممارسات بورجوازية صغيرة · وشنت هـذه المنظمة حملة ضارية على الحزب الشيوعي الاردني وعلى فصيله المقاتـل « قوات الانصـار » · وترى المنظمة انه اذا كان المقصود بالدولة الفلسطينية الديمقراطية « معايشة اليهود الذين اتوا الى فلسطين بعد ١٩٤٨ ، فهو منطق متخاذل مرفوض · وقد ارجعت المنظمة المذكورة

هزيمة ١٩٦٧ الى قيادة البورجوازية لحركة الثورة · وواصلت هجومها على الاتحاد السوفياتي ، مرددة المضمون نفسه الذي يذيعه الصينيون، فالاتحاد السوفياتي في رأي هؤلاء واولئك «سلك ويسلك مسلك الاستعمار الجديد ، منذ المؤتمر العشرين ، اي منذ ان فقدت الدولة السوفياتية صفتها الكادحة » ! (١٣) ·

اما الحزب الشيوعي الاردني فقد ظل معارضا للعمل الفدائي الفلسطيني ، باعتباره يحول دون التوصل الى تسوية سلمية ! الا ان الصراع سرعان ما دب في الحزب ، واستعر مع صعود العمل الفدائي نفسه · وقد ادى هذا الموقف الخاطىء الى انعزال الحزب وفقدانه لاغلب قواعده ومؤيديه · وفي اذار (مارس) ١٩٦٩ ، عبر الحزب الشيوعي الاردني عن سياسة جديدة ، اعتبرت انتصارا للجناح المنادي بضرورة الكفاح المسلح على الجناح المعارض له في الحزب الشيوعي الاردني · وكان مؤشر ذلك الانتصار ، هو البيان الذي اصدره الحزب ، في التاريخ المذكور ، والذي دعا فيه الى «حماية المقاومة المسلحة الناشئة ، وتنميتها، وتنظيمها، وتوحيدها» · كما اشار بيان الحزب الى « ان جميع الظروف آخذة في النضوج لاقامة جبهة شعبية ثورية··· تكون مؤهلة لقيادة الجماهير الشعبية في الاراضي المحتلة بشكل واع ، وتعمل على رفع مستوى الجماهير السياسي والكفاحي ، وتغرس فيها روح التنظيم ، وتطور كفاحها ، وتتولى انشاء منظمات للمقاومة في احياء المدن والمعاهد الدراسية واماكن العمل وفي القرى » كما طالب البيان بتنسيق « العمل بين قطاعي المقاومة في الاراضي المحتلة والضفة الشرقية » · ونوه الحزب في بيانه الى انه اذا « كانت الجماهير الشعبية الفلسطينية في الاراضي المحتلة انما تناضل لتصفية الاحتلال الاسرائيلي كهدف مباشرة في الوقت الراهن ، فهذا لا يعني ابدا تنازلها عن حقوقها المغتصبة ··· ومما لا شك فيه ان تصفية الاحتلال الاسرائيلي ستفتح الطريق لمواصلة النضال لحل القضية الفلسطينية حلا عادلا

لمصلحة الشعب العربي الفلسطيني وحركة التحرر العربية » (١٤) ٠ واعتبر البيان المذكور علامةهامة ومنعطفا تاريخيا في خط الحزب الشيوعي الاردني ، الذي دأب منذ هزيمة ١٩٦٧ ، على وضع شعار « الحكومة الوطنية » في مواجهة شعار « الكفاح المسلح » الذي رفعته منظمات المقاومة ٠ لذا فقد اعتبر الترحيب بالمقاومة ، والاشارة الى ضرورة النضال لاقامة حكومة وحدة وطنية في الاردن جنبا الى جنب مع دعم المقاومة المسلحة ، اعتبر هذا تصحيحا للخط الانعزالي للحزب ، ومقدمة ضرورية لخوض الحزب غمار الكفاح المسلح ٠

وفي ربيع ١٩٧٠ ، عقد الحزب « كونفرانس » ، ادان الخط السياسي للحزب ، وصادق على الخط الجديد ، الذي وضع الكفاح المسلح ضمن اساليب نضاله ، وقد عزز هذا الكونفرانس موقف الجناح المطالب بالكفاح المسلح داخل اللجنة المركزية للحزب ؛ مما مكنه من اجراء تعديلات جوهرية في مناصب اللجنة المركزية ، وبذا تحقق عزل الجناح الثاني وتم سحب المناصب الحزبية الهامة من عناصره ٠ وان كانت هذه العناصر قد عادت وانشقت عن الحزب في اعقاب مذبحة ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ ، بعد ان تهيأ لها ان هذه المذبحة ـ التي نظمها النظام الهاشمي ضد المقاومة ـ قد اثبتت صحة خطها المناهض للكفاح المسلح ٠

وفي وقت لاحق القى الحزب الشيوعي الاردني الضوء على اسباب قصوره وتخلفه وتردده في السنوات الثلاث التي اعقبت نكسة ١٩٦٧ ٠ فأرجعها الحزب الى « غياب البرنامج السياسي والزراعي والاقتصادي ، المستند الى الفهم الواقعي لمعطيات الحالة الموضوعية في البلاد ولنشاط الاستعمار الجديد وللظروف الجديدة على المستوى العالمي ، والافتقار الى فهم تناسب القوى الجديد ، وتقييم ادوار مختلف الفئات والطبقات استنادا الى الوقائع

الملموسة ، بدلا من الانسياق وراء قوة العادة ، والتقوقع داخل تقييمات عفا عليها الزمن » (١٥) ٠

وبينت الوثيقة الحزبية المشار اليها ، الى انه على الرغم من ان الكونفرانس الحزبي قد وجه لطمة قوية للانحراف اليميني « الا ان الحزب ظلّ يعاني من نتائج هذا الانحراف في المجالات الجماهيرية والتنظيمية والسياسية » (١٦) ٠

وفي الثالث من اذار (مارس) ١٩٧٠ ، صدر البيان الاول لقوات الانصار (١٧) ، وكان بمثابة برنامج المنظمة الفدائية الجديدة، والتي ساهمت في تكوينها الاحزاب الشيوعية في كل من الاردن والعراق وسوريا ولبنان ٠ وقد اشارت « الانصار » في بيانها الى انها « لاتبغي منافسة او معارضة اية منظمات مقاتلة ضد العدو ، (بل) ستكون رافدا من روافد المقاومة يصب في نهرها العارم » ٠ ونوه البيان الى ان هدف قوات الانصار هو « الدفاع عن شعبنا وحقه في تقرير مصيره على ارض وطنه ، ولتحقيق الغايات الوطنية الكبرى التي تعمل لها حركة المقاومة ، من اجل تحرير فلسطين ٠ وفي الوقت نفسه ، تعارض وتقاوم كل الحلول والمشاريع والمؤامرات الانهزامية والاستسلامية ، والتصفوية ، التي تسعى قوى الاستعمار والصهيونية والرجعية فرضها على شعبنا » ٠ واكد بيان الانصار على تمسك المنظمة « بمبادىء النظرة العلمية ، وبروح الوطنية والاممية» ٠واوضحت قوات الانصار في بيانها «الاسس والاعتبارات» التي تستلهمها « في نضالها ضد العدو الامبريالي الصهيوني وعملائه » ، وحصرتها في خمس ، هي :

« اولا : ان النضال بالسلاح ، وبالاساليب الاخرى ايضا ، ضد العدو واجب وطني ، ينبغي تطويره ، وتصعيده ، وتعميقه على الدوام ٠

ثانيا : ان نضال شعبنا ضد العدو ، يتلاحم ويترابط ، مع

نضال الجماهير الشعبية الكادحة والحركة الوطنية في الاردن ·

ثالثا : ان هذا النضال يتلاحم ويترابط مع نضال ومصالح حركة التحرر والتقدم في البلدان العربية ·

رابعا : ان هذا النضال يتلاحم ويترابط ، في النطاق العالمي ، مع النضال الذي تخوضه قوى الحرية والتقدم والسلام والاشتراكية، وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي ، ضد قوى الامبريالية والرجعية الدولية والصهيونية العالمية ·

خامسا : ان تحقيق وترسيخ الوحدة الوطنية بين جميع منظمات المقاومة والحركة الوطنية والشعبية،شرط ضروري واساسي للنجاح ، والانتصار ، وتحقيق الاهداف الوطنية المشتركة » ·

***

وبعد هذا العرض البالغ الايجاز لمنظمات المقاومة ، لعل من المطلوب والمفيد رصد ابرز سماتها ومميزاتها · وقد لوحظ انه في حين تميزت قيادة البورجوازية الوطنية بملاينة الاستعمار،وبالحديث المستمر عن الحق والقانون والمشروعية ، اتسمت قيادة المقاومة بسمات مغايرة تماما :

- اولاها : رفض اي حلول مرحلية او جزئية ·
- ثانيتها : تمجيد العمل الفدائي الفردي ، واحتقار النشاط السياسي والمطلبي ·
- ثالثتها : تجاهل الكفاح الطبقي ، وبالتالي رفض الاحزاب الشيوعية ، لفترة غير قصيرة ·
- رابعتها : الايمان بالقومية العربية في مفهومها المطلق ·

فالبيان السياسي الصادر عن «فتح» في اول كانون الثاني (يناير) ١٩٦٩ ، يقول (١٨) :

« ٢ ـ اعتبار هذه المرحلة من نضال شعبنا ، مرحلة كفاح وطني ،لا بد وان يستوعب كافة الطاقات الفلسطينية ، الامر الذي يحتم وحدة كافة الفئات الفلسطينية ، وانصهارها في بوتقة الثورة·

«٠٠٠ ٤ ـ رفض أية مساومة على حقوق الشعب الفلسطيني·

« ٠٠٠ اعطاء معركة تحرير فلسطين الاولوية على كافة القضايا العربية ·

وفي رسالتها الى المؤتمر الخامس للاتحاد العام لطلبة فلسطين ، المنعقد في عمان في ٣١ـ٧ـ١٩٦٩ ، قالت « فتح » ، ان وجود الاحزاب الفلسطينية تسبب في «غياب التنظيم الفلسطيني والقيادة الفلسطينية الملتفة اولا حول قضية تحرير فلسطين » (١٩)·

وفي مقدمة الكتاب السنوي المذكور ، قالت المنظمة نفسها : « كان علينا ان نحدد طبيعة الصراع بيننا وبين عدونا ، لنحدد على ضوئها بمن سنقاتل ؟ هل الصراع طبقي؟٠٠ ام وطني ؟٠٠ وبالتأكيد ليس الصراع القائم الآن على ارضنا المحتلة صراعا طبقيا مع قوى الاحتلال · ولكنه صراع يتطلع فيه كل شعبنا المطرود من فوق ارضه الى معركة يحرر فيها ارضه٠٠٠ بما يحدد طبيعة معركتنا ، مرحليا، في شكل حركة تحرير وطني تتحالف فيها الجماهير الفلسطينية المشردة » (٢٠) ·

وفي المذكرة التي قدمتها « منظمة التحرير الفلسطينية » (تحت قيادة فتح) الى مؤتمر القمة العربي الخامس ، المنعقد في الرباط في ٢٠ـ١٢ـ١٩٦٩ ، قالت المنظمة (٢١) :

« ٢ ـ ان التحرير يقصد به تحرير كل اراضي فلسطين العربية المحتلة ·

« ٤ ـ ٠٠٠ ان مسؤولية تحرير فلسطين والاراضي العربية الاخرى المحتلة ، تقع على الامة العربية ، حكاما وشعوبا · ويمارس الشعب الفلسطيني والثورة الفلسطينية مسؤولية طليعية في هـــذا المجال » ·

وفي الكتاب السنوي لعام ١٩٦٩ ، قالت فتح (٢٢): « ارتكب كثيرون خطأ فاحشا، عندما ربطوا فلسطين الثورة بمساحة الاراضي التي سماها الاستعمار : فلسطين · اننا في حركة فتح نعتبر فلسطين بعدا قوميا وليس بعدا جغرافيا » ·

ومن حيث الاساليب النضالية، فقد كانت البورجوازية الوطنية العربية تجتهد لركوب الموجات الثورية الجماهيرية ؛ بغية الافـادة منها في المساومة مع الاستعمار ، وايقاف الزحف الجماهيري فـي اقرب فرصة ممكنة · اما البورجوازية الصغيرة الفلسطينية ، فقـد تميزت اساليب نضالها ، لفترة طويـــلة وفي الاساس ، بالايمان بالشكل العسكري الفدائي البحت ، واستصغار النشاط السياسـي والفكري · وانطوى هذا على الاعتقاد بأن الجماهير تحتـــاج الى العمل البطولي الذي يوقظها من سباتها ، فالعمل الفلسطيني ، في رأي كاتب فلسطيني « يوقظ نضالية الجماهير ، ويشل ذبذبة القوى الوسطية ، ويحسم التناقض القائم بين الشعب وعملاء الامبرياليـة لصالح الشعب » ! (٢٣) ·

وفي بيانها السياسي الصادر في اول كانون الثاني (يناير) ١٩٦٩ ، قالت فتح في النقطة الاولى لبرنامجها (٢٤) :

« ١ ـ اعتماد الكفاح المسلح والثورة الشاملة كأسلوب وحيد لتحرير فلسطين وتصفية الكيان الصهيوني » ·

وقد ادى رفع احد اساليب النضال الممكنة الى مرتبة المبـدأ الاساسي والمذهبي ، الى نتائج خطيرة، لعـــل اولاها ان منظمات المقاومة لم تستطع ان تقيم العلاقات العضوية الدائمة والثابتـة مع

الجماهير الفلسطينية وغيرها في البـــلاد العربية ، وانما اكتفت بالعلاقات العاطفية والقائمة على الحماس السطحي ٠

على ان الحركة الوطنية الفلسطينية احرزت تقدما عظيما في ظل هذه القيـــادة الجديدة ، واهم جوانب هـــذا التقدم هو تأكيد الشخصية الفلسطينية ، وتحول شعب المخيمات الى شعب مناضل ، وعلى حد تعبير الحزب الشيوعي الاردني ، قامت المقاومة بنشاط ايجابي « في مقاومة الاحتـــلال ، وابراز الشخصية الفلسطينية والمساهمة في رفع معنويات الجماهير في المناطق المحتلة ، وجذبها للصمود والنضال والمقاومة ، وفي تنظيم الجماهير وتعبئتهم ضـد الامبريالية والصهيونية والرجعية ٠٠٠ » (٢٥) وهذه فتح تؤكد أن نضالها « في بداية الثورة ، من اجل تحـــرير الارادة الفلسطينية وتأكيد استقلالها عن الوصاية العربية الرسمية، التي عطلت انطلاقنا عشرين عاما ٠ ان شعبنا لا يزال يرفض محاولات بعض الدول خلق وصاية جديدة من خلال زرع امتدادات أو محـــاور في الساحـة الفلسطينية » (٢٦) ٠

وقد لعب هذا العامل دورا هاما جدا على مسرح الاحـداث العربية ؛ فبه اخذت القضية الفلسطينية تثار بعنف جديد لا امـام الفلسطينيين فحسب بل وامام الاسرائيليين والدول العربية والعالم اجمع ، بحيث وضع مزيدا من الصعاب في طريق الاجنحة المهادنة ٠ تقول الجبهة الشعبية الديمقراطية : « ٠٠٠ مؤتمرات القمة ، التي كشفت التجارب المرة انها ليست شكلا للتضامن العربي ضد الغزو الصهيوني الامبريالي ، ومن اجل سحق العدوان وتدمير قواعده ، بقدر ما هي اطار للتضامن بين الرجعية والقوى المتخاذلة العربيـة من اجل تخطيط عملها المشترك للوصول الى تسوية سلمية مع العدو على حساب شعـــب فلسطين والتحرر الوطني للشعـــوب العربية كلها » (٢٧) ٠

وقد كسبت حركة المقاومة الفلسطينية شعبية ونفوذا واسعين بين الجماهير العربية ، الامر الـــذي كان ذا مغزى كبير بالنسبة لمستقبل التطورات الداخليـــة في البلاد العربية · ونظمت بعض الانظمة الحاكمة العربيـــة اجراءات حصار ، بل وقمع ، متوالية ضدها ·

وثمة جانب هام آخر للتقدم الذي احرزته الحـــركة الوطنية الفلسطينية ، في ظـــل القيادة الجديدة ، وهو الاعـــلان الواضح الصريح بأنها لا تحارب الشعب الاسرائيلي باعتباره يهوديا :

« ان حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) لا تقاتل ضد اليهود كطائفة دينية ، بل تقاتل ضد اسرائيل كتعبير عن الاستعمار القائم على نظام ديني عنصري وتوسعي ··· وتعلن رسميـا بأن الهدف النهائي لنضالها هو اقامة دولة فلسطينية مستقلة ديمقراطية، يتمتع فيها كـــل المواطنين ، بغض النظر عن دياناتهـــم ، بحقوق متساوية » (٢٨) ·

وكان هذا دليلا على التطور التقدمي الذي احرزته الحـــركة الوطنية الفلسطينية ، وعلى ان هناك بعض الجسور التي يمكن ان تقام بينها وبين تلك الاقسام من المجتمع الاسرائيلي التي تبحث عن انشاء نظام عادل وانساني (٢٩) ·

ومع ذلك ، فقد احتوت قيادة البورجوازية الصغيرة الفلسطينية ـ بطبيعتها ـ على نواح سلبية هامة ، كانت السبب في تعثرها في نهاية المرحلة وفي الازمة التي واجهتها حينذاك ·

اولاها ـ دون شك ـ ان اختزالها النضال الوطني الى سلسلة من المعارك الفدائية دون برنامج سياسي ، جعـــل اغلب نشاطهـا محصورا في الصفوة المقاتلة،وجمد اساليب نضالها بشكلها الضيق، وقد حال هذا دون ارتباطها المطلوب بالجماهير العربية ـ والفلسطينية

ايضا التي اصبحت منـــذ الستينات تربط بين الاهداف الوطنيـة والتقدم الاجتماعي ، ربطا وثيقا · واستفادت بعض الانظمة العربية ـ وخاصة في الاردن ولبنان ـ من هذه الفجوة ، بين حركة المقاومة وبين الجماهير ، لتوجه للمنظمات الفدائية ضربات موجعة ·

وثاني السلبيات هي ـ في حقيقتها ـ الوجه الآخر للاولى · فاقتصار حركة المقاومة عـــلى الصفوة دون الجماهير ـ لامد غير قصير ـ جعل اغلب المنظمات الفدائية تعتمد على مختلف الـدول العربية ، سواء في المعونـــة المالية او التأييد السياسي ، اعتمادا حيويا ، مما جعل تلك المنظمات خاضعة ـ في الواقع ـ لشروط تلك الدول الى درجة كبيرة ·

اما ثالث السلبيات الاساسية لحركة المقاومة ـ في المرحلة التي اسبقناها ـ فهي تضخيم مبالغ فيه للخصوصية المميزة للقضية الفلسطينية ، وتفسير عدمي للتجارب التاريخيـــة للشعوب ، على الرغم من كثرة ما تردد على السنـــة رموز المقاومة من استرشاد حركة المقاومة بخبرات الثورتين الفيتنامية والكوبية ، وعلى الرغم من ترديد شعارات اممية ، تعبر عن الاعجاب اكثر مما تعبر عـــن الاقتداء ، مثل شعار «هانوي الثورة» وما اليه · وهي شعارات تبين مدى الخلط وعدم ايلاء ظروف الواقع الاهمية المطلوبة ·

وتختلف الجبهة الشعبية ، والديمقراطية ، عن « فتح » في نقاط هامة وجوهرية ، منهـــا الاعلان بتبني الماركسية ـ اللينينية كمذهب رسمي ، واعتمـاد التحليـــل السياسي على اساس وجود التناقضات الطبقية داخل المجتمع الفلسطيني (٣٠) · مع بذل الجهود للارتباط بالقواعـــد الشعبية الجماهيرية ، العماليـــة والفلاحية والطلابية (٣١) عـــلى اساس برنامج سياسي وعسكري · ولذلك فالجبهة الشعبية لها وجود عضوي بين جماهير الضفة الغربيـة ، جنبا الى جنب مع الحزب الشيوعي الاردني · غير ان اساليب الحرب،

النفسية (خطف الطائرات) التي اشتهرت بها لفترة طويلة، وضعتها – في نهاية الامر – مع قيادة البورجوازية الصغيرة ٠

***

قبل ان نستعرض ، في عجالة ، التطورات الرئيسية التي طرأت على القضية الفلسطينية في المجال العربي ، نود الاشارة الى ان المنطقة العربية كانت – وما زالت – مسرحا للشد والجذب بين العديد من القوى الاجتماعية المحلية والاجنبية ، وان كلا منها لجأت الى مختلف المناورات وعمليات الكر والفر المتتالية ، وترتبت على هذا اوضاع غاية في التعقيد والتركيب ؛ تتكون فيها الجبهات المعارضة ، وتتفكك لتتكون من جديد ، على اسس مختلفة وجديدة وبمشتملات متباينة ٠ ولذلك ، فلا يكاد يبدو ان الحوادث حسمت امرا بصورة قاطعة ، الا وتثار مشكلته مرة اخرى ، حتى تصل الازمة الى ذروتها ، بمنبحة ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ ٠

ولقد بدأت سنة ١٩٦٤ بمؤتمر القمة العربي الاول ، الذي اظهر الصف العربي موحدا في موقفه من المخطط الاسرائيلي لتحويل نهر الاردن (٣ كانون الثاني) ٠ وكان عبد الناصر يقود الهجوم السياسي على اسرائيل لانها « بغير الاستعمار لا تكون ٠ هي له ولخدمته ولاهدافه في السيطرة والاستغلال ٠ ويرتبط بذلك ان وجودها امتداد للوجود الاستعماري ٠ وينبع من ذلك ان انتصار الحرية والسلام في تصفية الوجود الاستعماري لا يمكن ان يمضي بغير اثر على الوجود الاسرائيلي » (٣٢) ٠

فانشىء صندوق فلسطين في الكويت ٠ واعترضت الهيئة العربية العليا على مشروع الكيان الفلسطيني ، في اذار (مارس) ونيسان (ابريل) ، وقاطعت المؤتمر الوطني الفلسطيني الاول ، المنعقد في القدس في ٢٨ ايار (مايو) ١٩٦٤ ، والذي قرر انشاء

منظمة التحرير الفلسطينية ، والذي كان احمد الشقيري اول رئيس لها · واقر مؤتمر القمـــة العربي الثاني مبدأ الكيان الفلسطيني ومشروع تشكيل جيش فلسطيني ، وتم تعيين وجيه المدني ـ الضابط الفلسطيني الذي يعمل في الجيش الكويتي ـ قائدا عاما لهذا الجيش في ايلول (سبتمبر) من السنة نفسها ·

واخذت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير تعلن (في تشرين الثاني) انها بصدد دراسة مشروع لتكوين مجلس قومي فلسطيني بالانتخاب السري المباشر ، فكاد الزمام يفلت من ايدي النظم العربية الحاكمة ، وخاصة الاردني واللبناني · فرغم ان مشروع الميثـاق الوطني الذي قدمه الشقيري ، نص على ان « لا تمارس هذه المنظمة اية سيادة اقليمية على الضفة الغربية في المملكة الاردنية الهاشمية ولا قطاع غزة ، وسيكون نشاطها على المستوى القومي الشعبي في الميادين التحريرية والتنظيمية والسياسية والمالية» · الا انه نص في الوقت نفسه على انه « بعد ان يتم تحرير فلسطين ، يختـار الشعب الفلسطيني، لحياته العامة، ما يشاء من النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية » كما اشار الى ان « المواطنين اليهود الذين هـم من اصل فلسطيني يعتبرون فلسطينيين ، اذا كانوا راغبين بأن يلتزموا العيش بولاء وسلام في فلسطين » (٣٣) ·

وهي آراء تنبىء بأن الشعب الفلسطيني اخذ ينظر الى مستقبله نظرة محورها التأكيد على شخصيته المستقلة ·

وبلغ جيش التحرير ما يقرب من ١٢٠٠٠ رجل ، وكان في هذا ما يكفي لاحداث ردود فعل معارضة ، خاصة بعد ان قامت فتـــح بأولى عملياتها الفدائية داخل الارض المحتلة مع مطلع عام ١٩٦٥·

ففي الوقت الذي تقرر فيه عدم مقاطعة البنك الامريكي الاحتكاري « تشيس منهاتن » ، كانت القيادة العربية الموحدة تصدر التعليمات

المشددة بعدم تشجيع الفدائيين الفلسطينيين وعدم اذاعة اي عملية عسكرية لقوات العاصفة التابعة لفتح (٣٤) ٠

ومع ذلك فان الدول العربيـــــة لم تجد صعوبة في ان تتبنى الموقف الرسمي لمنظمة التحرير، الداعي الى عدم الاعتراف باسرائيل او التعايش معها ومصالحتها (نيسان ١٩٦٥) ٠ وارتبط هذا الموقف بقطع العـــــلاقات الدبلوماسية بين مصر والجزائر من جهة وبين المانيا الغربية من جهـة اخرى (ايار ١٩٦٥) ٠ ولكن هذا الموقف الموحد لم يعمر طويلا ، اذ سرعان ما دب الخلاف والشقاق بين مصر وسوريا ٠ وكانت تونس قد انعزلت في وقت سابق ٠ وفي مؤتمر القمة الثاني ، المنعقـد في الدار البيضـــاء (ايلول ١٩٦٥) ، شكا الشقيري من عدم تأييد اعضاء كثيرين لمنظمة التحرير الفلسطينية ٠ وفي مؤتمر القمة الثالث المنعقد في الدار البيضاء، في اذار (مارس) ١٩٦٦ ، قدمت « فتح » مذكرة لفتت فيها نظر المؤتمرين الى « التآمر الفاضح الذي يتعرض لـــــه النضال الفلسطيني ٠٠٠ فوق التراب العربي ، لخنق المارد الفلسطيني الذي عرف طريقه ، وبدأ يمارس حقه ٠٠٠ ففي حين يتوجب على الدول العربية ان تجند قواها لحماية الابطال الفدائيين ، نجدها تلاحقهم ، وتعذبهم وتقتلهم» ٠ وختمت فتح مذكرتها بالمطالب التالية :

١ ـ احترام حق الشعب العربي الفلسطيني في النضال من اجل تحرير وطنه وبناء تنظيمه الثوري ٠

٢ ـ اطلاق حرية العـمل لجميع القوى الثورية الفلسطينية التي تؤمن بالكفاح المسلح طريقا للتحرير ٠

٣ ـ ضرورة تهيئة كل ارض عربية محيطة بفلسطين لتكـون منطلقا للتحرير ، وليس سجنا للمناضلين » (٣٥) ٠

وبقيت هذه المطالب بدون استجابة حقيقية حتى اليوم !

وقد اقترنت المواقف الوطنية ، باستمرار ، بتوثيق العلاقة مع المعسكر الاشتراكي والاحزاب العمالية والشيوعية · فان العلاقات المصرية ـ السوفياتية ، والسورية ـ السوفياتية ، اخذت تتوطد في هذه الفترة بصورة ملحوظة · واعلن الشقيري انه ينوي ارسال جنود جيش التحرير الفلسطيني الى فيتنام ، ليحاربوا جنبا الى جنب مع الثوار الفيتناميين ، واعلن ان عددا كبيرا من الفلسطينيين يتلقى تدريبا وسلاحا من الصين الشعبية ؛ ولكنه في الوقت نفسه ، نفى التهمة التي وجهتها الحكومة الاردنية الى منظمة التحرير بأنها «تتحول الى الشيوعية» ؛ وذلك في اجتماع القمة المنعقد في حزيران (يونيو) ١٩٦٦ ·

وانتهى عام ١٩٦٦ بالاتفاقية العسكرية التي عقدت بين مصر وسوريا في الرابع من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٦ ، واحست اسرائيل بالحصار العربي يضيق حولها ، فبادرت بالهجوم في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ · وقد ادت الهزيمة العسكرية السريعة التي منيت بها جيوش الدول العربية الثلاث (مصر ، سوريا ، والاردن) الى تعزيز الاعتقاد بأن الاسلوب الوحيد للقضاء على الدولة اليهودية هو في حرب العصابات المتواصلة، خاصة وان هذه الحرب نجحت في الجزائر ، وبدأت تثمر في فيتنام · كما ترتب على تلك الهزيمة ـ ايضا ـ جفوة جديدة في الصفوف العربية ، خاصة بين مصر والجزائر · وقد رفضت جميع منظمات المقاومة الاعتراف بوقف اطلاق النار الذي تم في ١٩٦٧ ، وكذلك بقرار مجلس الامن الصادر في تشرين الثاني (نوفمبر) من السنة ذاتها ، والذي يطلب الى اسرائيل الانسحاب من « اراض عربية احتلتها » ·

ومن جهة اخرى ، سارت بعض اجنحة الحركة الفلسطينية وراء الخط المعتدل ، الذي التزمت به مصر · ففي حين كان المتحدث الرسمي المصري يعلن ، في ٨ـ١١ـ١٩٦٧ ، ان « الجمهورية العربية

المتحدة تعترف بحق اسرائيل في العيش بسلام ، ولكنها لن تعترف بها اعترافا دبلوماسيا » كان يحيى حمودة ـ الرئيس الجديد لمنظمة التحرير الفلسطينية ـ يصرح لصحيفة « النهار » البيروتية ، في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٨ ان « الواقع هو الواقع ، وسيكون من الحمق من جانبنا ان نطلب من اليهود ترك فلسطين من اجل العودة الى البلدان التي جاؤا منها · ولكن اذا اراد اليهود البقـــاء في فلسطين بدون التخلي عن الصهيونية ، فعليهـم الاكتفاء بالمحافظة على المناطق التي احتفظوا بها قبل سنة ١٩٤٨ » ·

ولكن الكتلة الاكبر من الحركة الفدائية سارت في الاتجـــاه المعاكس ، ففي كانون الثاني (يناير) ١٩٦٨ اجتمعت ثماني منظمات فدائية ـ ليس بينها الجبهة الشعبية ولا منظمة التحرير ـ في مؤتمر دعا الى الوحدة الوطنية من خلال العمل المسلح ، والى رفـض كل الحلول الدبلوماسية كبديل عن تصفية الكيان الصهيوني (٣٦)·وفي اذار (ماس) ١٩٦٨ ، عقد اتفاق مبدئي بين منظمة التحرير وفتح والجبهة الشعبية عـــلى توحيد النضـــال الفلسطيني في المجالات العسكرية والسياسية ، وانشىء لهذا الغرض مجلس عسكري ضم مندوبين عن المنظمات الثلاث ، في تشرين الاول (اكتوبر) ، بعد ان اعلنت فتح ان كل قواعد المقاومة موجودة في الارض المحتلة · ومع تصاعد العمليات الفدائية اخذت تتأكد وتتعزز الفكرة القائلـة بأن النظرية تنبع من فوهة البندقية ، وهي الفكرة التي طالما تعـــرضت للنقد من المنابر الماركسية الفلسطينية والعربية ، ففي تموز (يوليو) ١٩٦٨ كتبت نشرة « المقاومة » السرية الصادرة عن الجبهة الوطنية المتحدة في قطاع غزة (منظمة يسارية) تقول : « ان محاولة التقليل من اهمية ودور النضال السياسي وقدرته هي استهانة بالجماهير ، وضيق افق ، وتقدير مريض في معرفة الواقع الموضوعي الـــذي يعيشه شعبنا في هذا الجزء المحاصر من الوطن · كما انها ـ في

اغلب الظن ـ محاولة لتغطية روح الانهزامية والهروب من المشاركة في العمل الجماهيري والتصدي لمؤامرات المحتلين ، وارهابهم ، وعدوانهم » (٣٧) ٠

وقد شهدت السنوات الثلاث التالية للنكسة ، اتساع نفـــوذ المنظمات الفدائية ، وخاصة فتح ، التي نجحت في اعلاء صوتها ؛ ففي شباط (فبراير) ١٩٦٩ اجتمـــع المجلس الوطني الفلسطيني ، وانتخب ياسر عرفـــات ـ زعيم فتح ـ رئيسا لمنظمـــة التحرير الفلسطينية بدلا من يحيى حمـــودة ؛ وانتقلت الاغلبيـــة في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الى ايدي ممثلي النشاط الفدائي ٠ كمـــا تكونت في اذار (مارس) ١٩٦٩ «قيادة الكفاح المسلح» التي انضمت اليها ـ شيئا فشيئا ـ معظم منظمات المقاومة ٠ وقامت هذه القيادة بالتنسيق بين منظمات المقاومة واصدار بياناتها العسكرية ٠ وظهر ان حركة المقاومة قد نجحت في تعبئة الشعب الفلسطيني حـــول ثورتها ، وفي اقامة هيكل تنظيمي متواضع ولكنه ثابت وفى فرض احترام وجودها على الحكومات العربية ، وكذلك في اثارة القضية العربية امام الشعب الاسرائيلي ، بشكل ملح (٣٨) ٠

وفي الوقت نفسه ، اخذت الثغرة تتسع بين منظمات المقاومة وبين اغلب الحكومات العربية: فالعلاقات تزداد وثوقا بين السعودية وبين الولايات المتحدة ، والجيش الاسرائيلي يعاود الهجوم عـــلى قواعد الفدائيين في الاردن وسوريا ، دون رد فعل ملموس ، وفي العاشر من شباط (فبراير) ١٩٦٩، نشرت مجلة «نيوزويك» الامريكية حديثا لعبد الناصر، قال فيه انه لو تم انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتـــلة ، فسوف تعرض مصر اعـــلانا بعدم الاعتداء وبالاعتراف بسلامة اراضي جميع الدول في الشرق الاوسط ، بما فيها اسرائيل ، وبحريـــة الملاحة وبحل عادل لمشكـــلة اللاجئين الفلسطينيين ٠ هذا في حين اصدرت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير

بيانا ، في العاشر من نيسان (ابريل) ١٩٦٩ « حول مساعي الدول الكبرى لحل الازمة» قالت فيه ، ان « الوجود الصهيوني لا يملك حق الحياة وحق البقاء في فلسطين ، وان الشعب الفلسطيني يعلن للدول الكبرى ، ولغيرها ، انه يرفض ويقاوم كل حل للقضية الفلسطينية يبقي على الوجود الصهيوني في فلسطين» (٣٩) ٠

وكان البيان يسجـــل ان الاتحاد السوفياتي قد « ثابر على الخطأ في موقفه من القضية الفلسطينية ، وفي تجاهله لحق الشعب الفلسطيني في كل وطنه» ٠ وكانت العلاقات تزداد وثوقا بين العديد من منظمات المقاومة وبين الصين الشعبية ، حتى ان مندوبو الصين الشعبية دعوا لحضور اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني، كمراقبين في عمان (٢٦ـ٨ـ١٩٧٠) ، دون الاتحاد السوفياتي ٠ وقد علق الحزب الشيوعي الاردني على هـــذه الاوضاع قائلا : « في رأس مهمات حركة المقاومة الفلسطينية وحركة التحرر العربية ، ان تعمل على زيادة عرى التحالف مع الاتحاد السوفياتي ، وان تعرف حركة المقاومة الفلسطينية الباسلة كيف تجد طريقها بحذق ومهارة لمواصلة الكفاح ضد المعتدين الاسرائيليين٠٠٠ لا ان تقع في الفخ الامبريالي، وتجد نفسها تتحول من الهجوم عـــلى الامبريالية واسرائيل الى الاتحاد السوفياتي ٠٠٠ و ج٠ ع٠ م٠ » (٤٠) ٠

وكان اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني قد انعقد في عمان على اثر موافقة مصر على مبادرة روجرز وايقاف حرب الاستنزاف التي كانت القاهرة قد بدأتها في القناة عام ١٩٦٩ ، فرفض المجلس تلك المبادرة واعلن ادانته لاي زعيم فلسطيني يشترك في محادثات سلام ٠

وكانت كـــل منظمات المقاومة ـ عـــدا « فلسطين العربية » و «الانصار» ـ قد شنت هجوما شديدا على حكومة مصر لموافقتها على مبادرة روجرز ٠

وقد كانت تلك المبادرة خاتمة لمرحـــلة بأكملها من التطورات الجارية في البلاد العربية ، وخاصة في النظام المصري ؛ ذلـك ان غياب الديمقراطية فيه والضغط المتزايد الذي مارسته البورجوازية الجديدة عليه ، فتحا الباب للتراجعات امام المناورات الاستعمارية · وكانت مذبحة ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ ، دون ان تفعل الانظمة العربية شيئا لانقاذ المقاومة والشعب الفلسطيني من براثن قـــوات الملك حسين ، التي اعملت تقتيلا ، تحت سمع وبصر الملـوك والرؤساء العرب ، ونجحت تلك القوات في الحاق خسائر فادحة في الارواح والاموال الفلسطينية ، بلغت نحـــو ٢٠ الف اصابة ، عدا الاموال والممتلكات · واخيرا جاءت الاتفاقية بين الملك حسين وبين المقاومة والتي مهدت لتصفية المنظمات الفدائية في الاردن وخروجها منـه ، مشيعة بالصمت الرسمي العربي ، بل ومباركة بعض الانظمة العربية لهذه التصفية ·

تحت الحكم الاسرائيلي :

شهدت الحركة الوطنية الفلسطينية في المناطق المحتلة تطورات تكاد تكون موازيـــة للسير العام الذي وصفناه آنفـــا ؛ اي عودة الشخصية الفلسطينية الى الظهور بقوة جديدة · ولكن الظـروف الخاصة بهذه المناطق اعطت الحركة الوطنية فيها طابعا مميزا – وهو التحرك الجماهيري الواسع · وفي تقديرنا ان هذا الطابع يعود الى سببين اجتمعا ، فأثمرا مستوى اعلى من النضال الوطني: اما السبب الاول ، فهو وجود كتلة كبيرة من الفلسطينيين (اكثـر من نصفهم) يشتركون في النشاط الاقتصادي السريع ، ويواجهون العدو الوطني مباشرة ؛ والسبب الثاني ، هو الدور الطليعي الذي لعبه كل من الحزبين الشيوعيين الاردني والفلسطيني بقطاع غـزة ، ونفوذ الجبهة الشعبية ، واعتماد حركة هذه التنظيمات الثلاثة على

المخلفية التي يفرشها الحزب الشيوعي الاسرائيلي ـ القائمة الجديدة (ركاح) ٠

وقد سارت الدوائر الاسرائيلية الحاكمة ـ ازاء النشاط الوطني الفلسطيني ـ تطبق الخطة القديمة نفسها ، وذلك حتى حرب الايام الستة ٠ فقد عملت كل ما يمكنها لتمييع الشخصية الفلسطينية و «صهينتها» اذا جاز التعبير ، بالاعتماد على تعاون القشرة الرقيقة من اغنياء العرب والعملاء ؛ وبدا وكأنها نجحت فيما تريد : ففي ١٩٦٣ ، مثلا ، ايدت الاحزاب العربية المتضامنة مع الماباي ، حكومة ليفي اشكول عند تأليفها بعد استقالة بن غوريون، وفي اذار (مارس) ١٩٦٥ ، ايد حزبان عربيان في الكنيست قرار مجلس الوزراء القاضي باقامة علاقات دبلوماسية مع المانيا الغربية (٤١) ، اي سار يد بيد مع الرجعية الصهيونية ٠

وابتداء من عام ١٩٦٦ ، ومع اشتداد الانتفاض على القهر الاسرئيلي ، اخذت الحكومة تدخل بعض الاصلاحات الشكلية في معاملتها للعرب (٤٢) ، فالغت الحكم العسكري من حيث الاسم ، اذ نقلت اختصاصه الى الادارة المدنية ، كما اعطى الهستدروت المساواة في الحقوق للعرب المنضمين اليه ٠

وعندما انتهت حرب ١٩٦٧ بالاستيلاء على مناطق عربية جديدة، مأهولة بالسكان ، اتبعت الطبقة الاسرائيلية الحاكمة سياسة مزدوجة حيال هؤلاء السكان ؛ القمع العسكري الشرس ، وتحويل تلك المناطق الى مستعمرة ملحقة من جهة ، والتعاون السياسي الوثيق مع اعيان المناطق المذكورة من جهة اخرى ؛ لادارة الضفة الغربية وقطاع غزة بواسطتهم ٠ واتجه البحث الى تحويل هذا التعاون الى شكل من اشكال الاستقلال الذاتي الفلسطيني او الدولة الفلسطينية المستقلة زعما والمستعمرة فعلا ، بفضل المصلحة التي يحققها رواج السوق المشتركة (العربية ـ الاسرائيلية) لتلك الطبقة

الهزيلة من المنتفعين الاغنياء من العرب (٤٣) ٠

واخذت القيـــادات البورجوازية العربية التقليدية تستقبل الحكام الاسرائيليين ، وتبحث معهم موضوع الكيان الفلسطيني ٠ واتسعت آمال تل ابيب : ففي ٢٧ـ٩ـ١٩٦٧ ، صرح ابا ايبان، وزير الخارجية الاسرائيلية ، في مؤتمر صحفي ، ان اسرائيل ترغب في تكوين « مجتمع اقتصادي مشترك » مع لبنـان والاردن ، واقتسام ميناءي حيفا وايلات مـــع عمان ، ونزع سلاح سيناء ، والتسليم بسيادة الاردن على الاماكن المقدسة بالقدس ٠ وفي كانون الاول (ديسمبر) شكل الوجهاء العرب في بعض مدن الضفة الغربية «لجانا قومية» ، واجتمعت هذه اللجان في القدس العربية ، وقـررت تكوين «لجنة قطرية» ، لاجراء المفاوضات مع الحكومة الاسرائيلية واقامة الاتصالات مع لجان مماثلة في قطاع غزة ٠

وكانت الاجنحة «اليسارية» الصهيونية ـ مثل هاعولام هازيه، والمابام ، وماكي ـ تبارك الاتصال بتلك الفئة العربية المحدودة ، بدعوة التفاوض مع شعب فلسطين (٤٤) ٠ واخذ الدكتور حمـــدي التاجي الفاروقي ـ في رام‌الله ـ يدعو الى انعقاد مؤتمر فلسطيني ينتخب مجلسا قوميا ، واصدر بيانا يستحث فيه الفلسطينيين عـلى تولي مصيرهم بأنفسهم (٤٥) ، وتشكلت حوله كتلة تنادي بانشـاء دولة فلسطينية توضع تحت اشراف الامم المتحدة لمدة خمس سنين، وتعقد معاهدة عدم اعتداء مع اسرائيل ٠ وفي تشرين الثـــاني (نوفمبر) ١٩٦٨ ، صدرت اول جريدة عربية ، « القدس » ، ورفعت شيئا فشيئا القيود على الاتجار مع المناطق المحتلة ومنها الى شرقي الاردن ، الامر الذي رحب به كبار التجار في نابلس وغيرها مـن المدن العربية ٠ غير ان ذلك الاتجاه « المعتدل» لم يحرز نجاحا كبيرا، لان الدوائر الاسرائيلية الحاكمة ظلت تمارس سياسة القهر والضم السافرة٠ وكتب الدكتور انور نسيبة ـ الوزير الاردني السابق ـ في

صحيفة «لامرحاف» يوم ١٢ـ١ـ١٩٧٠ ، يرد على الفاروقي ، قائلا: «كيف تطلب الينا الحوار مع الاسرائيليين ، وامامك التصريحات المتكررة التي تثبت ان الاسرائيليين لا يرغبون في الصلح ، بل في الضم » ؟

والى جانب ذلك التيار الفلسطيني المتهادن ، وجد تيار وطني آخر ، وهو المتمثل ـ اساسا ـ في « جماعة الارض » ، ذات الميول القومية ، والتي نشطت بصورة بارزة في اواسط الستينات ، والتي حاولت خوض المعركة الانتخابية للكنيست السادس (١٩٦٥) بقائمة مستقلة . الا ان السلطات الاسرائيلية شنت عليها حربا عشواء ؛ لان محور سياستها هو اعتبار عرب فلسطين جزءا من القومية العربية الشاملة ، وهذا رغم ان جماعة الارض طالبت بحل القضية فلسطين على اساس قرارات الامم المتحدة ، مما يعني موافقتها على التقسيم والاعتراف **باسرائيل (٤٦)** .

هذا وقد وقعت طوال تلك المرحلة تحركات جماهيرية واسعة ، ففي تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٥ اضرب موظفو المجالس البلدية العربية احتجاجا على انخفاض مستواهم الوظيفي بالمقارنة مع الموظفين اليهود. وفي ايار (مايو) ١٩٦٧، انزلت الاعلام الاسرائيلية المرفوعة على المدارس العربية في كفرقاسم والطيرة في المثلث العربي، عشية ذكرى قيام اسرائيل ، وتم احراقها . وفي الاسبوع الاول لشهر حزيران (يونيو) ـ قبل العدوان مباشرة ـ عقد مؤتمر شعبي في الجليل اعلن تأييده لعبد الناصر وهتف الحاضرون بسقوط اسرائيل (٤٧) .

وعند العدوان ، برزت ظاهرة جديدة ، تدل على مدى عمق التطور الاجتماعي والسياسي الذي طرأ على عرب فلسطين ، حيث ان نسبة كبيرة منهم لم تهرب امام القوات الاسرائيلية الغازية، مثلما حدث عام ١٩٤٨ . بل ان نسبة كبيرة من العرب الذين فروا حاولوا

العودة ، واضطرت السلطات الاسرائيلية الى قبول بعضهم فعلا ٠ وكان لهذا تأثير كبير ، لانه كان دلالة على انعطافة هامة في الحركة الوطنية الفلسطينية ٠

وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٧ ، تشكلت في الضفة الغربية جبهة واسعة ضمت الحزب الشيوعي الاردني والقوميين العرب وحزب البعث وجبهة تحرير فلسطين ، وقد استبعد الاخوان المسلمون والعناصر الموالية لامريكا ؛ وكانت هذه الجبهة تعارض اقامة دولة فلسطينية تحت كنف الاحتلال الاسرائيلي (٤٨) ٠ وفي منتصف ١٩٦٩ اعيد تشكيل « جبهة المقاومة الشعبية » ونسقت الكفاح مع « الجبهة الوطنية المتحدة بقطاع غزة » ٠ وظلت هذه التنظيمات تعمل في المناطق المحتلة وتتضامن مع الموقف المصري(٤٩). والحاصل ان هذه المرحلة شهدت تجذيرا قويا للجماهير العربية وزيادة ارتباطها بالاحزاب الشيوعية (الاردني ، الفلسطيني بقطاع غزة ، ركاح) : ففي انتخابات ايلول (سبتمبر) ١٩٦٩ للجنة التنفيذية للهستدروت ، اعطى ٣٩٪ من الناخبين العرب اصواتهم لقائمة ركاح (مقابل ١٩٪ عام ١٩٦٥) ٠ ولعب الحزب الشيوعي الاردني دورا طليعيا في توحيد صفوف التنظيمات الوطنية في الضفة الغربية، كما قام الحزب الشيوعي الفلسطيني بقطاع غزة بعمل تنظيمي وفكري هام بفضل اشتراك عناصره في اعمال المقاومة الشعبية، وفي توضيح اهدافها عن طريق البرنامجين اللذين اصدرهما عامي ١٩٦٧ و ١٩٧١ (٥٠) ٠

وهكذا انتقل النضال الوطني الفلسطيني في اسرائيل الى مستوى اعلى ، وفرض القضية القومية الفلسطينية على الحكام الاسرائيليين ، بفضل التحرك الجماهيري الواسع ٠ فمنذ الشهور الاولى التي تلت الاحتلال، قامت اعمال العصيان المدني، واضرابات المدارس ، والامتناع عن دفع الضرائب ، ومقاطعة البضائع

الاسرائيلية ، وفـــرض حظر التجول ، واجـــريت اعمال التفتيش الواسعة الهمجية، ونسفت المنازل، وجرى اعتقال مئات الفلسطينيين ونفي العشرات منهم خارج البلاد · وارتبط النضال الوطني الشعبي بالاعمال الفدائية المتكررة ، فكان هذا كله تأكيدا للضعف الكامن للهيكل السياسي الاسرائيلي بالنسبة للقضية الفلسطينية (٥١) ·

ففي اب (اغسطس) ١٩٦٧ انتشرت المنشورات التي تدعـــو مدينة القدس العربية الى الاضراب العام ، ونفذ هذا التوجيه فـــي اجماع رائع ، واغلقت جميع المحال ، وتوقفت المواصلات العامة · وفي اول ايلول (سبتمبر) اصدر المدرسون في الضفة الغربية بيانا اتهموا فيه الحكومة الاسرائيلية بتزييف المناهج الدراسية ودعوا الى مقاطعة الدراسة ؛ وفي التاسع عشر من الشهر نفسه ، اضربت المدن العربية في الضفة الغربية احتجاجا على الاحتلال ، بمناسبة افتتاح دورة الجمعية العامة لهيئة الامـــم · وفي ٢٣ منـــه نفت السلطات الاسرائيلية الشيخ عبد الحميد السايح ، رئيس المحكمـــة الشرعية العليا ، واحد ابرز قادة الحركة الوطنية في الضفة الغربية ابعدته الى الضفة الشرقية بتهمة التحريض على الثورة · وفي كانون الاول (ديسمبر) قامت مظاهرة للعمال العرب العاطلين في رفـــح تطالب بالخبز ، فأطلق الجنود الاسرائيليون النار عليهم وقتلوا احدهم · والشاهد ان المحكمة العسكرية القائمة في نابلس وحدها – على سبيل المثال – نظرت في شهرين اثنين من عام ١٩٦٧ فيمـــا يقرب من ٦٥٠ قضية اهانة للبوليس والجيش الاسرائيليين ، كما ان ٢٠٠ فدائي – تقريبا – قدموا الى المحاكمة العسكرية في قطاع غزة في الفترة نفسها ·

وفي الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧ شمـــل قطاع غزة اضراب عام ، احتجاجا على الاحتلال الاسرائيلي وتنديدا بوعد بلفور · وقد نظم هذا الاضراب استجابة لدعوة « الجبهة الوطنيـــة

المتحدة » ، وهي الجبهـــة التي كانت قد تشكلت في القطاع – في ايلول (سبتمبر) ١٩٦٧ – من الحزب الشيوعي وحزب البعث وجبهة تحرير فلسطين وبعض القادة النقابيين · في حين تشكلت في موازاتها «طلائع المقاومة الشعبية» من القوميين العرب ومؤازريهم · وقـــد فشلت المحاولات العديدة بين المنظمتين المذكورتين ·

وفي ايار (مايو) ١٩٦٨ ، اضربت مدينة رام‌الله ، احتجاجا على الاستعراض العسكري الاسرائيلي ، وتظاهر النساء والطلبة في غزة ضد الاحتلال اربعة أيام متتالية ، والقيت القنابل عـــلى الجنـود الاسرائيليين ، ثم تتابعت المظاهرات احتجاجا على عمليات التفتيش والاعتقال ، التي ردت بها سلطات الاحتلال ، ودارت معارك حقيقية في دير البلح اثناء الاحتفال الاسرائيلي بذكرى الاستيلاء عـــلى القدس، بعد ان اقام الطلبة المتاريس التي سدوا بها الطريق الرئيسي وقذفوا السيارات الاسرائيلية بالحجارة ، وحالت النساء والطالبات الفلسطينيات دون مرور الاسرائيليين في طريق معسكر النصيرات · وتكررت المظاهرات النسائية في حزيران (يونيو) في القدس ورام‌الله ونابلس ؛ احياء لذكرى شهداء حرب الايام الستة ، ثم انضم اليهـا المتظاهرين الذين قذفوا سيارات الجنود الاسرائيليين بالحجارة · وفي تموز (يوليو) عقد اجتماع رسمي لرؤساء البلديات العربية ، انقلب الى ادانة اجماعية لسياسة الاضطهاد القومي ضد العرب(٥٢) · وفي تشرين الاول (اكتوبر) تظاهرت مئات الطالبات العربيات فـي نابلس ، احتجاجا على الاحتلال الاسرائيلي ، ثم شملت المظاهرات مدينة جنين ، فنفت السلطات محمد توفيق حسن ، نائب رئيس بلدية المدينة · وفرض نظام حظر التجول على اريحا لقيام المظاهرات فيها يومين متتالين ، والقي القبض على نديم الزور ، رئيس بلدية رام‌الله « لدواعي الامن » · وفي تشرين الثاني (نوفمبر) اضرب اصحاب المحلات التجارية في القدس الشرقية ونابلس وبيت لحم ، احتجاجا

على ذكرى وعد بلفور ، ورفض طلبة هذه المدينة مواصلة الدراسة مطالبين بالافراج عن زملائهم ومدرسيهم المعتقلين ؛ وفرض منـــع التجول في القدس العربيـــة وغزة ، لانفجار الغام ومقتل جنود اسرائيليين · والقت السلطات القبض على بعض القـادة النقابيين الفلسطينيين ، بسبب رفضهم الانضمام الى الهستدروت ·

وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٦٩ ، اضرب عدد من السيدات الفلسطينيات عن الطعام ، واعتصمن في كنيســة القبر المقدس ، احتجاجا على عمليات القمع الاسرائيلي في المناطق المحتلة · وفي شباط (فبراير) اقام نحو ثلاثـــة الاف طالبة في غزة المتاريس في الشوارع ، وقذفن السيارات الاسرائيلية بالحجارة ، هاتفات « يحيا ناصر ! » ، فهاجمهن البوليس وجـــرح نحو ٩٠ طالبة ، فاندلعت المظاهرات في نابلس ، واضطرت السلطات الى فرض حظر التجول والاستعانة بالجيش لتفريق المتظـــاهرين · وفي حزيران (يونيو) اضربت المحلات في القدس العربية (الشرقية) ونابلس ، في ذكرى حرب ١٩٦٧ · وبلغ عدد المظاهرات ، خلال ١٩٦٩ ، اثنتين وستين مظاهرة في كل ارجاء فلسطين ·

وفي اول كانون الثاني (يناير) ١٩٧٠ ، اعلن الجنرال ديان ـ امام الكنيست ـ ان ٩٩٩ عملا تخريبيا وقع خلال ثمانية اشهر من عام ١٩٦٩ ، قتل فيها ٤٠ فدائيا و ٢٣ جنديا اسرائيليا ، وجرح ٥٨٨ فردا ؛ وقد ردت السلطات الاسرائيلية بقتل ٥٠ عربيا وجـــرح ٥١٦ ، ونسفت ٥١٦ منزلا عربيا · وفي ايار (مايو) ١٩٧٠ ، اضرب اصحاب المحلات في القدس العربية ، تعبيرا عن رفضهم لضريبـــة الدفاع الاسرائيلية · وهكذا كان تاريخ المقاومة العربيـــة سلسلة طويلة متصلة من المظاهرات ، والاضرابات ، والعمليات المسلحة ضد الاحتلال ·

في الاردن :

ان المتأمل في تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية بالاردن ، لا بد من ان يستنتج دروسا قاسية ، من ترابط تسلسل الحوادث بها · فهنا ايضا ، انبثقت الشخصية الفلسطينية ، وناضلت نضالا بطوليا؛ لتحقيق اهدافها التحررية ، وهنا ايضا استعملت الفئـــة الحاكمة اسلوبا مزدوجا لمقاومتها : القمـــع الوحشي من جهة ، والمناورة لاحتواء الحركة الوطنية الفلسطينية من جهة اخرى ، وخاصة بأعلان الاستعداد لقبول الدويلة الفلسطينية في ظل الحكم الهاشمي العميل· غير ان اعداء التحرر الوطني الفلسطيني في الاردن ـ الاستعمار وعملاءه ـ نجحوا في نهاية المرحلة في توجيه ضربة كبـرى للحركة الوطنية الفلسطينية ، بفضل استغلال هؤلاء الاعداء لعاملين سلبيين في هذه الحركة : الاولى بعثرة المنظمات الفدائية · والثانية ، الخط القومي العربي المطلق لهـــذه المنظمات ، الامر الذي مكن الدوائر الحاكمة الاردنية من استمرارها في تضليل الحركة الوطنية مـدة طويلة ، ودفعها الى المآزق · والثالثة عزلتها عـن النظام الوطني المصري ، والرابعة ، اعتمادها عـــلى الحماس السطحي للجماهير العربية ، دون الارتباط العضوي بها ·

وقد ادركت الولايات المتحـــدة والمانيا الغربية وبريطانيا ، الامكانات الواسعة التي تقدمها الرجعية الاردنية للاستعمار العالمي ضد حركة التحرر العربي ، خاصة للقضاء على القوة الفلسطينية الوطنية المتصاعدة (٥٣) ؛ فأغرق الاستعمار الحكومة الاردنية بسيل من المعونات والاسلحة واتفاقات « التنمية » ! وان كانت المبالغ قد هبطت بعض الشيء ، ابتداء من ١٩٦٥ ، اي منـــذ تكوين منظمة التحرير الفلسطينية وقيام فتح · وفي حزيران (يونيو) ١٩٦٥ ، اخذ الخبراء الامريكيين يدرسون امكانيات الجهاز الحكومي الاردني ؛

لمساعدته على النهوض · واتسعت وتعـــددت المحادثات بين الملك حسين وبين حكام بـــون وواشنطن ، في الوقت الذي اعلنت فيه (٥ـ٩ـ١٩٦٧) ، انه « يعتبر ان تجديد النشاط الفدائي في المناطق الاردنية التي تحتلهـــا اسرائيل ، جريمة ترتكب ضـــد اخواننا الفلسطينيين » ·

ونفذ الملك حسين تهديده ، بأن القى القبض عـلى الفدائيين الذين اغاروا على ايلات ، في الثامن من نيسان (ابريل) ١٩٦٩ · وفي كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٠ ، الح في مطالبة الولايات المتحدة بثمن مذبحة ايلول (سبتمبر) وبدأت المفاوضات فعلا بين الجانبين : الامريكي والاردني ، للحصول على قرض مقداره ٢٠٠ مليون دولار من واشنطن ·

وكان وزير الخارجية الاردني ، عام ١٩٦٧ ، قد ارسل الـى السفير الاردني في واشنطن خطابا سريا يقول فيه :

« ان اقامة دولة فلسطينية في فلسطين ، وضم الضفة الغربية اليها ، يؤثر تأثيرا كليا على الكيان الاردني ويشجع ابناء فلسطين ··· على التمرد ··· وهذه ليست لصالح امريكا ، ولا لصـــالح اسرائيل· واذا استمرت اسرائيل في مشروعها هذا، فاننا مضطرون لالغاء جميع الاتفاقات السرية المرتبطين بها مع اسرائيل ··· وان الحكومة الاردنية سترى نفسها مضطرة للتعاون مع الدول العربية ، ودول الكتلة الاشتراكية ··· ولكننا سنحتفظ بصداقـــة الولايات المتحدة الامريكية الى ابعد الحدود » (٥٤) ·

هذا ما كان يجري في السر، اما في العلن، فقد كانت الحكومة الهاشمية تكرر ـ طوال سنتي ١٩٦٨ و ١٩٦٩ ـ الوعود بأنهـــا ستمكن الشعب الفلسطيني من ممارسة حق تقرير مصيره بحرية ، بعد جلاء اسرائيل ، وتؤكد انها تعارض المشروع الاسرائيلي لانشاء الدولة الفلسطينية (تصريح وصفي التل في ٢ـ١ـ١٩٧١) ؛ وفي

الوقت نفسه كان حسين يقول لايغال آلون ، اثناء المحادثات السرية بينهما ، انه يوافق على منح نوع من الاستقلال الذاتي للفلسطينيين، ولكن بشرط ان يكونوا تحت رقابته، وليس باعتبارهم دولة فلسطينية مستقلة (٥٥) · واخيـــرا ، اعلن حسين مشروع الدولـــة العربية المتحدة (الاردنية ـ الفلسطينية) الذي يعتبر جزءا مـــن التسوية الاستعمارية مع اسرائيل ، وتعترف فيـــه بالسيادة الاردنية على الضفة الغربية وقطاع غزة ، مقابل بقاء هذه المناطق تحـت السيطرة العسكرية الاسرائيلية ، باساليب مختلفة · وهكذا تم اغلاق دائرة الحصار على القضية الفلسطينية ، بالاتفاق المصلحي بين الحكومة الاسرائيلية والدوائر الهاشمية مرة اخرى : لقد اتفق الطرفان عام ١٩٤٨ على تمزيق فلسطين ومحو اسمها من الخريطة ، واليـوم ، وازاء ضغط الحركة الوطنية الفلسطينية ، يتفقان على اقامة دولة مسخ ، يتقاسمان السيطرة عليها !

والحاصل ان التصادم بين الدوائر الاردنية الحاكمـــة وبين الحركة الوطنية الفلسطينية ، اخذ يتصاعد ، بصورة مستمرة ، منذ بدء هذه الفترة ، ليس حول قضايا الديمقراطية والتحرر الوطني الاردني فحسب (كما حدث من قبل) ، بل حول قضيـــة تحرير فلسطين ، وحق تقرير مصير الفلسطينيين بالذات ، وهـــو الامر الجديد الجدير بالانتباه · غير ان وقوع قيادة البورجوازية الصغيرة الفلسطينية ، في مصيدة القومية العربية المطلقة ، فتح امام الرجعية الهاشمية الابواب على مصاريعها ، للقيام بمختلف المناورات التي تلف القضية الفلسطينية بالغموض ، كما ان الانفصال العضوي بين هذه القيادة وبين الجماهير الكادحة الفلسطينية ، مكن تلك الرجعية من توجيه الضربات الشرسة الى حركة المقاومة ·

والملاحظ ان ظهور القيادة البورجوازية الصغيرة قـد ارتبط بمد جماهيري عام في الاردن · ودعت نقابـــة المحامين ـ في عام

١٩٦٤ ـ الى مؤتمر عام لكافة النقابات المهنية والعمالية ومندوبي الصحف ، لمناقشة مشروع ميثاق وطني فلسطيني ، مما يبين مدى انصهار القضية الفلسطينية في القضية العامة ، وقدمت النساء الاردنيات في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٤ ، التماسا الى مجلس النواب لمنحهن حق الترشيح للمجالس البلدية٠٠٠ ونشطت الاحزاب التقدمية ـ رغم عمليات الاعتقال ـ التي زادت شدتها ضد اعضاء البعث والشيوعيين والقوميين العرب ٠

وفي حزيران (يونيو) ١٩٦٥ ، وافقت الوزارة الاردنية على مشروع قانون يرمي الى تقوية الدفاع عن القرى والمعسكرات المتاخمة للحدود ، بواسطة قوات من المتطوعين ، وتدريب الطلبة والموظفين على استعمال الاسلحة والدفاع المدني ، وفي الشهر نفسه كان الشقيري يزور عمان ، ويصرح بأن منظمة التحرير الفلسطينية مصممة على تنسيق جهودها مع الاردن ، وتم لقاء بينه وبين حسين، اشيع بعده ان الملك تعهد بمنح تأييده الكامل للمنظمة ؛ غير ان الخلافات سرعان ما ظهرت على السطح ، واشتدت ، بسبب رفض الحكومة الاردنية تنظيم الفلسطينيين تنظيما عسكريا في الضفة الغربية ، وبسبب رفضها فرض ضريبة خاصة عليهم لحساب منظمة التحرير ، وان تتولى تنظيمات الشباب الفلسطيني تقوية الدفاع عن الحدود مع اسرائيل ٠ وفي كانون الثاني (يناير) ١٩٦٦ ، وصلت المحادثات بين الاردن وبين منظمة التحرير الى المأزق الكامل ، ولكن وكالات الانباء اذاعت ان هدنة في المجال الدعائي قد وقعت بين الطرفين ، واعلن على اثرها ان الحكومة الاردنية سوف تسمح ببعض النشاط للمنظمة ، غير ان عمليات القبض على الفلسطينيين استمرت ، ووجهت اليهم تهمة العمل مع الاحزاب التقدمية (الشيوعي البعث ، والقوميين العرب) ٠

ومنذ اواخر ١٩٦٦ ، بدأت تفوح رائحة الاتفاقات والتنسيق

بين الحكومة الاردنيـــة وبين المخابرات الامريكيـــة والبريطانية والسعودية ، ضد الحركة الوطنية الفلسطينية (٥٦) · وكانت هـذه تمهيدا لاعتداءات اسرائيلية جديدة ، ومركزة على المراكز الفدائية ، مثل الهجوم على قرية السموع (١٣ـ١١ـ١٩٦٦) ؛ غير ان هذا الحادث استثار الجماهير بشكل لم يكن متوقعا ، اذ قامت المظاهرات الواسعة في انحاء الاردن ، تطالب بأعطاء حرية الحركة للفدائيين الفلسطينيين · واستمرت اعمال العنف في نابلس والقدس وجنين وطولكرم وبيت لحم الخ ··· حتى اوائل كانون الاول (ديسمبر)، تطالب بالسلاح · ووقعت مصادمات دامية بين المتظاهرين والبوليس الاردني ، مما حدا بالحكومة الى فرض حظر التجول في رام الله ، ووصلت الحركة الى قمتها بالاضراب العام في معظم المدن الاردنية (٢٥ـ١١ـ١٩٦٦) · وقد دعا الزعماء الفلسطينيين الى عقـد مؤتمر في القدس ، لتسجيل المطالب الوطنية التي ستقدم الى الملك حسين ، غير ان الحكومة منعت الاجتماع ، وفرضت منـع التجول في نابلس والخليـل · ومن كانون الثاني (يناير) حتى ايار (مايو) ١٩٦٧ ، اخذت منظمة التحرير تهاجم الملك حسين علنا ، ودعا احمد الشقيري الى اسقاطه ·

وجرت الانتخابات النيابية الاردنية ، وسط ذلـــك التحرك الجماهيري ، ومنعت الحكومة الاردنية الاحزاب التقدمية والوطنية من الاشتراك في المعركة الانتخابية ، ولكن هذا الحرمان استثني منه الاخوان المسلمين وجماعة المفتي السابق ـ امين الحسيني ـ الذي صالحه الملك حسين ، على اساس العداء المشترك لحركة المقاومـة الفلسطينية· وكان هذا التمزيق للجبهة الداخلية، هو السبب للهزيمة العسكرية التي لحقت بالاردن في حرب ١٩٦٧ ·

وبعد الهزيمة ، خصصت الحكومة الاردنية ٤٥٪ من ميزانيتها لدعم القدرة العسكرية ، ولكن الهدف لم يكن الدفاع ازاء اسرائيل

بل لمحاربة الحركة الوطنية الفلسطينية ، وبشكل خاص المنظمات الفدائية (٥٧) ٠

وفي شباط (فبراير) ١٩٦٨ ، هاجم الملك حسين النشاط الفدائي ، في تصريح له قال فيه انه لن يسمح لاحد ان يقدم لاعداء البلاد مبررا جديدا ، وتلا هذا التصريح بشن غارة لقوات الامن الاردنية على معسكرين للفدائيين ، في الاغوار بجنوب الاردن ، ثم في عمان والمدن الاردنية الاخرى في تشرين الثاني (نوفمبر) ، وتوالت حملات القمع في شباط (فبراير) ١٩٧٠ ، ثم في حزيران (يونيو) من العام نفسه ، الى ان امتدت وتحولت الى مذبحة عامة في ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ ، وتلتها مذبحة اخرى في تموز (يوليو) من العام الذي تلاه ٠ ومما زاد من سعار الرجعية الاردنية ، ان القوات الفدائية نجحت في افشال الهجوم الاسرائيلي على «الكرامة» في ٢١ اذار (مارس) ١٩٦٨ ، فاكسبها ذلك عطف الجماهير العربية العريضة٠ والملفت للنظر ان قوات اردنية كانت قد شنت هجوما على التمركز الفدائي في « الكرامة » ، في ٢ شباط (فبراير) من السنة نفسها ، اي قبل شهر ونصف من الاعتداء الاسرائيلي في المكان نفسه ٠

وبعد معركة الكرامة تشكل « التجمع الوطني » من كل الاتجاهات الوطنية والاخوان المسلمين ، والنقابات المهنية ، وممثلي بعض منظمات المقاومة ؛ واختير سليمان النابلسي امينا عاما له ٠ متراجعين امام الضغط الحكومي ، كما انسحبت منه المقاومة ، مما فتت تلك المحاولة لتوحيد الصفوف الاردنية (٥٨)، وخدم ـ موضوعيا ـ الحملة الرجعية والاستعمارية ؛ التي اتهمت التجمع بأنه مكون من عناصر « موالية للروس ومتطرفة » (٥٩) ٠

وقد اعاد الحزب الشيوعي الاردني فشل التجمع الى مزيج من العوامل والاسباب ، فقال عنه انه « كان مشلولا ومعزولا بعد

ولادته ، واقتصر نشاطه على المناسبات ... اوساط البورجوازية الوطنية – بكل فئاتها – مسؤولة عن ذلك ، برفضها تبني شعار حكومة الوحدة الوطنية ، واقامة فروع للتجمع في مختلف مناطق البلاد ، والمساهمة النشيطة في الدفاع عن مطالب الشعب وحرياته ... » (٦٠) .

وفي الثالث عشر من تشرين الثاني (اكتوبر) ١٩٦٨ ، ارسل الملك حسين الى صحيفة « صنداي تلغراف » اللندنية ، خطابا ، يقول فيه انه لا ينوي تحويل الاردن الى دولة فدائيين ، وردت « فتح » بدعوة جميع الاردنيين للوقوف كدرع للثورة في وجه المؤامرة التي بدأت لطعن الثورة الفلسطينية في ظهرها . وبالفعل ، افتعلت المنظمة الفدائية الفلسطينية « كتائب النصر » – وهي المنظمة ذات القيادة المشبوهة – معركة مع الجيش الاردني ، واستغلت الحكومة الاردنية هذا الحادث لفرض القيود على حركة المقاومة ، فوصلت الى موافقة المنظمات الفدائية على التعاون مع نقاط التفتيش الحكومية، وعلى عدم دخول رجال المقاومة المدن الاردنية بأسلحتهم، وشاع بين حركة المقاومة الوهم بأنها امنت نشاطها ، بفضل هذا الاتفاق مع الحكومة الهاشمية ، واعلن ياسر عرفات خطته لنقل جزء كبير من القوات الفلسطينية من مصر وسوريا والعراق الى الاردن (٦١) .

وتكررت المأساة في عامي ١٩٦٩ و ١٩٧٠ . فاثناء زيارته لواشنطن ، خطب الملك حسين في نادي الصحافة مقترحا الاعتراف بوجود اسرائيل ، وحدودها ، وحقها في الملاحة في القناة ، بشرط الانسحاب من الاراضي المحتلة (١٠–٤–١٩٦٩) . اما للاستهلاك المحلي ، فقائد الجيش – الشريف ناصر – يصرح بأنه يؤيد المنظمات الفدائية « المنظمة تنظيما مناسبا » . وكذلك كان تعهد الملك حسين بتصعيد المقاومة ضد اسرائيل ، الى ان يتم النصر (تموز – يوليو) .

وفي شباط (فبراير) ١٩٧٠ ، اصـــدرت الحكومة الاردنية مرسوما يمنع حمل الاسلحة ؛ وقبلت المقاومة التحدي ، ووقعت صدامات بين الفدائيين والجيش الاردني ، انتهـــت بتراجع مؤقت للملك ، ثم افتعلت الحكومة محاولة اغتيال الملك ، واتخذتها مبررا لاعلان الاحكام العرفية في ١٦ ايلول (سبتمبر) ، وشنت حربا ضارية ووحشية ضد الفدائيين واللاجئين الفلسطينيين في مختلف المـــدن الاردنية والمعسكرات؛ وفقد الفلسطينيون في معارك ايلول (سبتمبر) عددا كبيرا من القتلى والجرحى (قدرته المقاومة بحوالي خمســـة وعشرين الف اصابة) ٠ والحقيقـــة ، ان الجيش الاردني فشل ، حينذاك ، في قهر المقاومة ، اذ بقي ربـــع مدينة عمان تحت سيطرة الفدائيين لآخر لحظة مثلا ، رغم استمرار المعارك لمدة ١١ يوما على التوالي ، فقد فيها الجيش الاردني نحو ١٢٠ دبابة ومجنزرة ،ومئات من القتلى والجرحى ٠ وتم التوقيع على وقف اطلاق النار ، في ٢٧ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ ، بالقاهرة ، بالتدخـــل الشخصي للملوك والرؤساء العرب ٠ وطبقا للاتفاق ، تجمعت القوات الفدائية في مراكز منعزلة بعيدة عن المدن ، مما سهل عـــلى الجيش الاردني ضربها في تموز (يوليو) ١٩٧١ ٠

واقترن ضرب المقاومة على يد الجيش الاردني بأن تقـــدم الرئيس الامريكي ، نيكسون ، الى الكونغرس بطلب منـــح معونة عسكرية الى الاردن ، قيمتها ٣٠ مليون دولار (١٨ تشرين الثاني – نوفمبر) ٠

٣ ـ على ابواب مرحلة جديدة

شهدت السنوات الاولى للسبعينات ، تفتت اغلب الروابط العسكرية والاقتصادية داخل المعسكر الاستعماري ، وفقدان واشنطن لهيبتها كقائدة لهذا المعسكر في كثير من المجالات ؛ وعلى النقيض ، اكتسب المعسكر الاشتراكي مزيدا من القوة والنفوذ . وفي الشرق الاوسط ، فان الهزيمة العسكرية التي الحقت بالانظمة العربية في حرب ١٩٦٧ ، كشفت عن ضعفها الكامن . فساهمت في تجذير اعمق لجماهير العمال والفلاحين والبورجوازية الصغيرة (تشكيل الجبهات الوطنية ، واشتراك الحزبين الشيوعيين في سوريا والعراق في الوزارة ، صمود الجبهة القومية في اليمن الشعبية الديمقراطية ، محاولة الانقلاب اليساري في السودان ، حركات العمال والطلبة في مصر) . وفي المجال الفلسطيني ، انعكس هذا التجذر بارتفاع معدل اسهام الشيوعيين في الحركة الوطنية ، وتبني معظم فصائل المقاومة للماركسية ـ اللينينية ، وفى تحقيق مستوى افضل فى مجال الوحدة الوطنية بين الفصائل الوطنية الفلسطينية ، وفي قيام « الجبهة العربية المشاركة للثورة الفلسطينية » ؛ وارتبط هذا الاعتراف بالوجود الشيوعي العربي على مستويات مختلفة،بدراسات نقدية لتجارب الحركة الوطنية العربية عموما ، بما فيها الحركة الوطنية الفلسطينية .

وكان المخطط الرئيسي لمنظمات المقاومة هو اتخاذ البلدان العربية المحيطة باسرائيل كنقاط انطلاق لعملياتها الى اسرائيل ، غير ان ضرب المقاومة في الاردن ، عام ١٩٧٠ ، وحصارها شبه

التام في لبنان ، وتقييد حركتها في سوريا ، حال دون تمكنهـــا من الاستمرار في التنفيذ · وجاء تداعي الجبهة الداخلية المصريـة ، بعد وقف حرب الاستنزاف ، ليحكم حلقات الازمة العربية ، وعجزت عمليات « ايلول الاسود » عن تقديم مخرج لهذه الازمة ، كمـا ان تطورات المقاومة في داخل الارض المحتلة ، اظهرت انفصالا متزايدا بينها وبين قيادة البورجوازية الصغيرة ·

وترسم هذه الاوضاع المتأزمة ، المعالم الحقيقية للمشكلة التي تواجهها الحركة الوطنية الفلسطينية في مرحلتها الجديدة ، وهي مشكلة لا بد من ان تكسر حلقاتها الرئيسية ؛ لكي تتقدم نحو النصر · فجانب منها ، ان قوى جديدة ، اكثر شعبية ، بدأت تصعد وتضغط على الاطار السياسي والتنظيمي للحركـــة الوطنية ، وهي قـــوى الجماهير العريضة من عمـــــال وفلاحين فقراء ولاجئيين ؛ وحتى تستوعبها الحركة الوطنية وتتمكن من تعبئتها ، لا بد من ان يكـون لهذه الحركة برنامج سياسي ونظرة شاملة للقضية الفلسطينية ، اي ان تربط بين الاهداف الوطنية وبين المضمون التقدمي والاشتراكي لنشاط الجماهير الكادحة ربطا وثيقا ، وان تتخطى الموقف القومي المطلق ·

والجانب الثالث للمشكلة ، اتخاذ موقف ايجابي واضح من القوى السلامية والتقدمية الاسرائيلية ، وان كانت صغيرة ومحدودة التأثير في الوقت الحالي ؛ فلم يترتب حتى الآن ـ بعد ربع قرن من انشاء الدولة الاسرائيلية ـ على خط النفي الشامل العـــربي لتلك القوى ، نقول لم يترتب عليه سوى مزيد من الحصار الداخلي لها ، ومزيد من العراقيل تنثر امام الحركة الوطنية الفلسطينية في المناطق العربية الواقعة تحت الحكم الاسرائيلي ·

المساندة السافرة التي يقدمها الاستعمار الامـريكي للدوائر الصهيونية الحاكمة بالقدس ، والدور التخريبي الذي يلعبه اذنابـه

من حكام بعض الانظمة العربية ، ليضع امام الحركة الوطنية العربية والفلسطينية جزء منها ، مهمـــة توحيد صفوف اعداء الاستعمار الامريكي في المنطقة بأكملها ٠

★★★

ما كانت مذبحة ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ سوى حلقة ، وان كانت هامة ، في سلسلة الخطوات التي اقدمت عليها الطبقة الحـــاكمة الاردنية ، لتنفيذ الخطـــة الاستعمارية وتصفية علاقاتها بالقضية الفلسطينية ؛ واستمرت هذه الطبقة الحاكمة في تثبيت دعائم نظامها الرجعي ، و « طهرت » اجهزة الدولة والجيش من العناصر الوطنية الشريفة، حتى بلغ عدد المفصولين منها نحو ٥٠٠٠ شخص منذ حرب حزيران (يونيو) حتى اوائل ١٩٧٢ ٠ وخفتت رغبة تلك الدوائر في العودة الى السيطرة على الضفة الغربية ، وتراودها فكرة العودة الى مملكة شرق الاردن ؛ اي التنازل الكامل لاسرائيل عـن هذه المنطقة (٦٢) ٠

واما المنطقة العربية الرازحة تحت نير الحكم الاسرائيلي ، فقد تميزت اوضاعها بعد ١٩٧٠ ، بثلاث سمات رئيسية : الاولى ، هبوط في النشاط الفدائي ٠٠ والثانية، استمرار الحركة الجماهيرية (مظاهرات ، اضرابات ، اعمال مسلحة) والمطالبة بالتحـرر الوطني وجلاء القوات الاسرائيلية المحتلة ٠ والسمة الثالثة ، هـــي ظهور اتجاه واضح لدى قطاع من البورجوازية الفلسطينية للمطالبة بتكوين دولة عربية ذات استقلال ذاتي ، بدرجات متباينة ٠ فذلك القطاع من البورجوازية الفلسطينية في الاراضي المحتلة رأى مصلحـة طبقته في الحفاظ على حرية الاتجار بين الضفتين ، التي سمحت بهـــا الحكومة الاسرائيلية ، وكـــذلك السماح لفلسطينيي شرق الاردن بالزيارة بعشرات الالوف ، وفتح مجال العمل امام عشرات الآلاف

من العمال الفلسطينيين في المنشآت الاسرائيلية · وبـــذا ضعفت الارضية الاجتماعية التي كانت تقف عليها حركـــة البورجوازية الوطنية بين الفلسطينيين ·

والتف التيار المنادي بدولة فلسطينية مستقلة ، حول ما اسموه بـ « الجبهة الوطنية الفلسطينية » ، في اواخر ١٩٧٠ ، وفي الوقت نفسه ، دعا حمدي كنعان ـ رئيس بلدية نابلس السابق ـ الى اقامة دولة اتحادية اردنية ـ فلسطينية ، ووجدت دعوته هذه تأييدا بين بعض اعيان نابلس والقدس · ونشط الشيـــخ محمد الجعبري ـ المحرك الاول لمؤتمر اريحا ـ في اتجاه مواز ·

وفي الثامن عشر من اب (اغسطس) ١٩٧١ ، عقد في بيت ساحور مؤتمر لممثلي البلديات والمجالس البلدية في الضفة الغربية، اصدر نداء الى الدول العربية ، ناشدها فيه بالغاء القيود عـــلى صادرات الضفة الغربية (٦٣) · وناقش المؤتمر امكانية بناء تنظيـم سياسي فلسطيني في الضفة الغربية · وقد مهد هذا المؤتمر (وغيره من الاجتماعات والمقالات والكتب) الطريق لاجراء انتخابات المجالس البلدية في الضفة الغربية ، والتي اجريت في اذار (مارس) ١٩٧٢، طبقا للقانون الاردني ، الذي يحصر الناخبين في المقتدرين وكبار دافعي الضرائب ، لذا فقد كان طبيعيـــا ان تكون نسبة التصويت كبيرة (٦٤) ، مما يدل على رغبة البورجوازية الوطنية الفلسطينية الملحة في اعادة تنظيم صفوفها ·

***

رفض المجلس الوطني الفلسطيني ، عامي ١٩٧١ و ١٩٧٢ ، فكرة الدولة الفلسطينية ؛ لسببين معا : الاول ، انها ستكون تابعة لاسرائيل من جهة ، ولانها تتضمن الاعتراف بالدولة اليهودية مـن جهة اخرى ·· والثاني ، انها تفصل بين ضفتي الاردن ، وبالتالي

تضعف النضال الوطني في كليهما (٦٥) · ولكن هذا الرفض وحده لم يحل المشاكل · فان منظمات المقاومة بدأت تدرك بصورة متزايدة وحادة « انعدام نفوذ المقاومة في الاراضي المحتلة ، وعدم قدرتها على النفاذ الى قواعدها الشعبية » (٦٦) ، و «عدم التوجه الجدي لانجاز الوحدة الوطنية ، والتقليل ··· من ضرورة الالتحام بالجماهير العربية وطلائع نضالها الوطني ، والمبالغة ـ احيانا ـ في تقدير دور الانظمة العربية · وفوق كل هذا ـ وسببا له ـ عدم التقيد ببرنامج ··· لنضالنا السياسي والعسكري » (٦٧) ·

وكذلك ابرز بعض الكتاب التقدميين الفلسطينيين ضرورة عزل اليمين عن مواقع القيادة للحركة الوطنية الفلسطينية ، وضرورة النضال ضد سيادة البورجوازية الوطنية على تلك الحركة (٦٨) · واكد ياسر عرفات ان ازمة المقاومة قد كشفت عن اخطائها ، ومنها انها طرحت نفسها بديلا عن الحركة الوطنية الاردنية ، وعن الجمعيات والنقابات والاتحادات ، واضاف انه اصدر امرا بتجميد كل التنظيمات الفلسطينية داخل الساحة الاردنية ··· (٦٩) ·

لقد مرت اكثر من تسع سنوات على انطلاق العمل الفدائي ، واثبتت عملياته البطولية استمرار وجود الشعب الفلسطيني ، واستحالة اذابته في الشعوب العربية ، او تصفية قضيته التحريرية · وفي الوقت نفسه ، فان التطورات الاخيرة ، خاصة بعد مذبحة ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ ، تشير الى ان المقاومة الفلسطينية لم تحقق تأثيرا ذا وزن على القوى العسكرية للعدو الاسرائيلي ؛ يتعدى حد ازعاجه · وحيث ان النشاط العسكري ظل محور العمل الفدائي لمدة غير قصيرة ، فان هذ دالنتيجة تدفع الى ضرورة مراجعة سياسة

المقاومة على اساس البحث عن المنهج الذي يعبىء الجماهير الفلسطينية الكادحة ، وينظمها ، ويوحدها حول اهداف وطنية ديمقراطية ، واضحة ، تضمن لها – ايضا – تأثير القوى المحبة للسلام والتقدم في اسرائيل نفسها ، والعالم اجمع · وذلك ان الحوادث المتتالية تبين ، بشكل متزايد ، ان فاعلية النشاط العسكري للحركة الوطنية لن تكون الا نتيجة لقوة الاعمال الجماهيرية للطبقات الكادحة ، وتنظيماتها السياسية ، والديمقراطية ، والتقدمية وليس العكس ·

هوامش

(١) انظر : فتح · الكتاب السنوي لعام ١٩٦٩ ، ص ٨١ ·
(٢) ديلي تلغراف ، ٢٠ ـ ٨ ـ ١٩٦٨ ·
(٣) غازي خورشيد · دليل حركة المقاومة الفلسطينية ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٧٠ ، كتب فلسطينية ـ رقم ٣٢ ، ص ١١ ـ ٥٥ ·
(٤) المصدر نفسه ، ص ٦٥ ـ ٨٢ ·
(٥) المصدر نفسه ، ص ٨٥ ـ ١٠٥ ·
(٦) المصدر نفسه ، ص١١١ ـ ١٣٨ ·
(٧) المصدر نفسه ، ١٩٧ ـ ٢٠٩ ·
(٨) المصدر نفسه ، ص ١٤٣ ـ ١٦٨ ·
(٩) المصدر نفسه ، ص ١٧٣ ـ ١٩٣ ·
(١٠) المصدر نفسه ، ص ٢١٥ ـ ٢٢٥ ·
(١١) المصدر نفسه ، ص ٢٢٩ ـ ٢٤٣ ·
(١٢) المصدر نفسه ، ص ٢٤٧ ـ ٢٦٠ ·
(١٣) المصدر نفسه ، ص ٢٦٣ ـ ٢٧٥ ·
(١٤) بيان الحزب الشيوعي الاردني ، اواسط اذار (مارس) ١٩٦٩ ·
(١٥) الحزب الشيوعي الاردني ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٣ ·
(١٦) المصدر نفسه ، ص ١٦ ·
(١٧) بيان قوات الانصار ، ٣ ـ ٣ ـ ١٩٧٠ ·

(١٨) الطليعة (القاهرية) ، العدد السادس ، السنـــــة الخامسة ، يونيو (حزيران) ١٩٦٩ ، ص ٩٥ ٠

(١٩) فتح : مصدر سبق ذكره ، ص ١٣٨ ٠

(٢٠) المصدر نفسه ، ص ١١ ـ ١٢ ٠

(٢١) المصدر نفسه ، ص ١٩٨ ٠

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٢٥ ٠

(٢٣) عبد القادر ياسين : حول العمل الفدائي ٠ الكاتب ، العدد ٩٦ ، السنة التاسعة ، آذار (مارس) ١٩٦٩ ، ص ٣٤ ٠

(٢٤) فتح : مصدر سبق ذكره ، ص ٩٧ ٠

(٢٥) الحزب الشيوعي الاردني : مصدر سبق ذكره ، ص ٢٥

(٢٦) فتح : مصدر سبق ذكره ، ص ١٥ ٠

(٢٧) الجبهة الشعبية الديمقراطية ، مصدر سبق ذكره ، ص ١ ٠

(٢٨) فتح : بيان سياسي صادر في باريس في ١ ـ ١ ـ ١٩٦٩ ، المصدر السابق ، ص ١٠٥ ٠

(٢٩) حوار بين أبي اياد ولطفي الخولي ٠ الطليعة (القاهرية) العدد السادس، السنة الخامسة ، يونيو (حزيران) ١٩٦٩ ، ص ٨٧ ٠

(٣٠) الجبهة الشعبية الديمقراطية : مصدر سبق ذكره ، ص ٢٨ ـ ٢٩ ٠

(٣١) O. ORTEGO: De l'intérieur d'un getto Palestinien, Tricontinental (La Havana), 6*em* année, Mai 1971, P.P. 17 - 18.

(٣٢) خطاب عبد الناصر أمام مجلس الامة المصري ، في ٢٥ ـ ٣ ـ ١٩٦٤٠

(٣٣) عدلي حشاد : مصدر سبق ذكره ، ص ١١٢ ـ ١١٤ ٠

(٣٤) حوار بين أبي اياد ٠٠٠ مصدر سبق ذكره ، ص ٦٣ ٠

(٣٥) فتح : مواقف ومنطلقات ثورية ٠ دراسات وتجارب ثورية ، رقم ١٠، بدون ذكر مكان وتاريخ النشر ، ص ١٩ ـ ٢٥ ٠

(٣٦) تقارير الشهر : وحدة أداة الثورة الفلسطينية ٠ الطليعة (القاهرية) العدد الثاني ، السنة الرابعة ، فبراير (شباط) ١٩٦٨ ، ص ١١١ ٠

(٣٧) ذكره أميل توما في صحيفة الاتحاد ـ ٢٦ ـ ٧ ـ ١٩٧٢ ٠

(٣٨) M. HUDSON: Op. Cit., P.P. 306 - 307.

(٣٩) فتح : الكتاب السنوي لعام ١٩٦٩ ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٧٣ ـ ١٧٤ ٠

(٤٠) بيان الحزب الشيوعي الاردني في ٣٠ ـ ٧ ـ ١٩٧٠ (انظر : الطليعة (القاهرية) ، العدد التاسع ، السنة السادسة ، سبتمبر (ايلول) ١٩٧٠، ص ١٢٧ ٠

(٤١) جالينا نيكتينا : مصدر سبق ذكره ، ص ٩٨ ، ١٥٨ ٠

(٤٢) صبري جريس : ظروف عرب اسرائيل ، الاهرام ـ ٣٠ ـ ٢ ـ ١٩٧١٠

(٤٣) انظر : السيد عليوة : مخططات اسرائيـــل لتهويد الارض المحتلة ٠ الطليعة (القاهرية) العدد الثالث ، السنة السابعة ، مارس (آذار) ١٩٧١ ص ٤١ ٠ وكذلك هالة جمال الدين : الضفة الغربية ، الوضع والافاق٠ الطليعة (القاهرية) العدد الرابع ، السنة الثامنة ، ص ٤٦ ٠

(٤٤) أحمد صدقي الدجاني : المواجهة السياسية الاسرائيلية للمقاومة ٠ الطليعة (القاهرية) العدد السابع ، السنة الخامسة ، يوليو (تموز) ١٩٦٩ ، ص ٢٧ ـ ٢٨ ٠

(٤٥) Nouvel Observateur - 15/11/67.

(٤٦) صبري جريس : العرب في اسرائيل ، مصدر سبق ذكره ، ص ٩٥ ٠

(٤٧) رفيق مطلق : اسرائيل قبيل العدوان ، مركز الابحاث الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٣٩ ٠

(٤٨) الاتحاد : ٣ ـ ١٠ ـ ١٩٦٧ ٠

(٤٩) الاهرام ـ ٥ ـ ٨ ـ ١٩٧٠ ٠

(٥٠) الطليعة (القاهرية) العدد الثاني ، السنة الثامنة ، فبراير (شباط) ١٩٧٢ ، ص ١٢٢ ـ ١٢٥ ٠

(٥١) N. WEINSTOCK - Op. Cit., P. 456.

(٥٢) الاتحاد : ٣٠ ـ ٧ ـ ١٩٦٨ ٠

(٥٣) مجلة «الثورة الفلسطينية » ، العدد ٣١ ، يناير (كانون الثاني) ١٩٧١ ص ١ ـ ٢ ٠

(٥٤) عن صحيفة «فتح» ، في سبتمبر (أيلول) ١٩٧٠ ، (انظر ـ جلال السيد: الثورة الفلسطينية المسلحة · الكاتب ، العدد ١٣٢ ، السنة ١٢ ، مارس (اذار) ١٩٧٢ ، ص ٩١) ·

(٥٥) Le Monde - 16/3/1972.

(٥٦) الاهرام ـ ١ ـ ١٠ ـ ١٩٦٦ ·

(٥٧) Le Monde - 17/3/1972.

(٥٨) وديع أمين : الحركة الوطنية في مواجهة المخططـــات الامبريالية · الطليعة (القاهرية) ، العدد الرابع ، السنة الثامنة ، ابريل (نيسان) ١٩٧٢ ، ص ٢٨ ·

(٥٩) ديلي تلغراف ـ ٢٠ ـ ١٠ ـ ١٩٦٨ ·

(٦٠) الحزب الشيوعي الاردني ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٧ ·

(٦١) الاهرام ـ ٦ ـ ٢ ـ ١٩٦٩ ·

(٦٢) الاهرام : ماذا يحدث في عمان ـ ٢٨ ـ ١ ـ ١٩٧٢ ·

(٦٣) هالة جمال الدين : مصدر سبق ذكره ، ص ٤٩ ·

(٦٤) انجي رشدي : مشروع الملك حسين · الاهرام ـ ٢٢ ـ ٣ ـ ١٩٧٢ · وكذلك الاهرام ـ ٢٩ ـ ٣ ـ ١٩٧٢ ، ص ١ ·

وانجي رشدي : حقيقة الاكراه الاسرائيلي · الاهرام ـ ٨ ـ ٤ ـ ١٩٧٢

انظر ايضا : Le Monde - 5/5/1972.

(٦٥) خالد الحسن : لماذا نرفض المملكة العربية المتحدة · الطليعة ، العدد الرابع ، السنة الثامنة (نيسان) ١٩٧١ ، ص ٧٠ · وكذلك عزيز احمد عزمي ـ دولة فلسطين المستقلة · الطليعة ، العدد السادس ، السنة الثامنة ، يونيو (حزيران) ١٩٧١ ، ص ١٥٧ ·

(٦٦) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام : القضية المطروحة اليوم أمام الثورة الفلسطينية · الاهرام ـ ٧ ـ ٤ ـ ١٩٧٢ ·

(٦٧) لطفي الخولي : الجبهة الوطنية المتحدة للثورة الفلسطينية · الاهرام ٢٩ ـ ٥ ـ ١٩٧٢ ·

(٦٨) عبد القادر ياسين : دروس وخبرات الثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ · الطليعة (القاهرية) المعدد الرابع ، السنة السابعة ، ابريل (نيسان) ١٩٧١ ، ص ١٠٤ ·

(٦٩) الاهرام ـ ١ ـ ٢ ـ ١٩٧١ ·

فهرس

تقديم	٥
مقدمـــة	٧
الفصل الاول	١١
تكوينات ما بعد النكبة	١٣
التقسيم	١٣
الاحتكام للسلاح	١٤
تشتت جغرافي وانهيار التكوين الطبقي	٢٠
١) قطاع غزة	٢٨
٢) في الاردن	٣١
٣) في ظل الحكم الاسرائيلي	٤٣
هوامش الفصل الاول	٥٦
الفصل الثاني	٦٣
الجذور التاريخية للمقاومة	٦٥

تحت الرماد جمـــر ٦٧

تمزيق فلسطين ٧٧

المقاومة الوطنية في اسرائيل ٧٩

في قطاع غزة وسوريا ٨٣

في الاردن ٨٧

هوامش الفصل الثاني ٩٨

الفصل الثالث ١٠١

الشخصية الفلسطينية تؤكد نفسها ١٠٣

تحت الحكم الاسرائيلي ١٢٩

في الاردن ١٣٧

على ابواب مرحلة جديدة ١٤٥

هوامش الفصل الثالث ١٥١

فهـــرس ١٥٧

مطبعة الرأي الجديد
بيروت - تلفون ٢٣٠٠٣١
ص.ب ٢٨١٠-١١